دكتور عبد الودود شلبي

التزوير المقدّس

دار الشروق



التزوير
المقدس

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

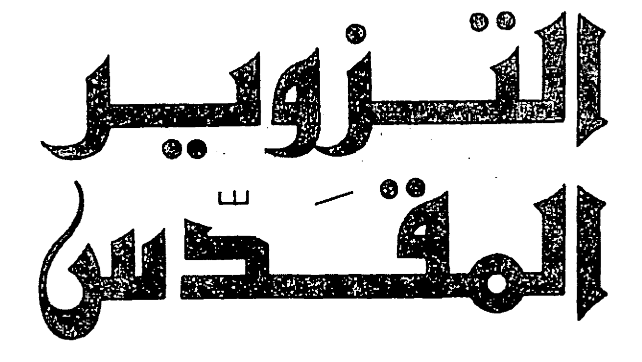
© دار الشروق

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN

SHOROUK INTERNATIONAL: 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL: 637 2743/4, TELEX: SHOROK 257786

دكتور عبد الودود شلبي



دار الشروق

بسم اللہ الرحمن الرحیم

مقدمة

في مطلع القرن الخامس عشر الهجري شددت الرحال إلى استراليا ممثلاً لـ «رابطة العالم الإسلامي» في هذه القارة ...

لم أقم هناك أكثر من سنة واحدة .. ولكن أي سنة تلك التي أقمتها في أستراليا ... ؟

دنيا عجيبة ... وعالم تختلط فيه الصور والأجناس . والعقائد والألوان لتصنع باختلاطها مزيجاً من المجتمعات الفريدة فى هذه الدنيا ..

كنت كمن يسير على الصراط وسط هوج العواصف ... وجبال الأمواج متلمساً ـ بالإسلام والمسلمين ـ طريق النجاة وسط بحار الشوك والضياع ...

صراع متفجر في داخل النفس ، وحوار متجدد بين الإسلام ومختلف العقائد والمذاهب المتفشية في هذا العصر ...

ماذا يقولون عن الإسلام ؟

هذا هو السؤال الذي شغل بالي كثيراً . وفكرت فيه طويلاً . وكان من ثمرته هذه الدراسات أو الفصول التي سوف تقدم « بمشيئة الله » إلى القارئ المسلم وغير المسلم ـ تباعاً .

لكن ماذا عن أستراليا ..... ؟ والمسلمين وكيف وصلوا إلى أستراليا .. ؟

لقد أفردنا فصلاً خاصاً من هذه الرسالة للإجابة على هذا السؤال ... وسيرى القارئ بعد قراءته لهذا الفصل أن الإسلام كان من الممكن أن يلعب دوراً هاماً في مستقبل هذه القارة لولا الضغوط والظروف التي حالت بين الإسلام وقيامه بهذا الدور ... ولولا العجز والقصور الذي تتسم به حياة المسلمين في هذا العصر ...

الإسلام .. والمسلمون ..
فى استراليا

أستراليا ... أو البلاد الجنوبية ..

الجنوبية بالنسبة لخط الاستواء .. أو الجنوبية بالنسبة لآسيا .. أو الجنوبية لقربها من القطب الجنوبي المتجمد .

أستراليا ... هذه القارة الجديدة .. البعيدة ... ذات الخمسة عشر مليوناً من الناس .. ما هي وماذا تكون .. ؟

* إن أستراليا تبلغ في الحجم حجم الولايات المتحدة[1] الأمريكية ولكن تعداد سكانها أقل من عشر تعداد سكان الولايات المتحدة الأمريكية وهي أكبر خمسة وعشرين مرة من بريطانيا وإيرلندا .

* أستراليا هي أصغر قارات العالم ولكنها أكبر جزائره وهي في نفس الوقت أقل قارات العالم والجزائر كثافة للسكان .

* طول السواحل الأسترالية التي تشبه الكمثرى حوالي ٢١,٢١٠ ميل وأطول أنهارها هو نهر دارلنج الذي يبلغ ١,٧٠٢ ميل ويليه في الطول

---

(١) لقد اعتمدنا في هذه الإحصائيات على ما كتبه الدكتور / محمد العريان الأستاذ بالجامعات الأسترالية .

في الطول نهر الموري الذي يبلغ ١،٦٠٩ ميل .

* أكبر الولايات الأسترالية هي ولاية غرب أستراليا التي تساوي تقريباً ثلث مساحة أستراليا برمتها ومساحتها ٩٧٥،٩٢٠ ميلاً مربعاً .

ولقد أنشئت الولايات المتحدة الأسترالية الراهنة كوحدات مستقلة على النحو التالي :

نيو سوث ويلز	سنة ١٧٨٦	New South Wales
تسمانيا	سنة ١٨٢٥	Tasmania
غرب أستراليا	سنة ١٨٢٩	Western Australia
جنوب أستراليا	سنة ١٨٣٤	South Australia
فكتوريا	سنة ١٨٥١	Victoria
كوينز لاند	سنة ١٨٥٩	Queensland
الإقليم الشمالي	سنة ١٨٦٣	Northern Territory
العاصمة الأسترالية	سنة ١٩١١	Canberra

وجدير بالذكر أن نيوزيلندا كانت في وقت من الأوقات (١٨٤٠) تابعة لولاية نيوسوث ويلز ولكنها أصبحت مستعمرة قائمة بذاتها سنة (١٨٤١) .

ولقد سميت أستراليا بالقارة المجدودة والقارة المحظوظة وسميت بقارة المستقبل وسميت بالقارة اللاهية التى تعطى نصف وقتها للرياضة وكل وقتها للمقامرة والباقي للرحلات !

وسميت بالقارة البيارة (نسبة إلى شرب البيرة) . !

ومن طريف ما يذكر أن من بين كل ٩٥ أمًّا أسترالية فإن واحدة منهن تلد توأمين وواحدة من كل ١٠،٣٠٩ أمهات تلد ثلاثة توائم .

وأن عدد النساء الأرامل يزيد على عدد الرجال الأرامل ثلاث مرات ونصف مرة . !

كما أن متوسط العمر في أستراليا ٦٨ سنة للرجال و٧٤ سنة للنساء .

وخلال الحرب العالمية الثانية وأثناءها شهدت أستراليا أكبر حركة هجرة إليها وكان هؤلاء المهاجرون يسمون بالأستراليين الجدد

ويستهلك الأستراليون في المتوسط في العام بالنسبة للفرد :

٢٢٥ رطلاً من اللحم .

٢٩ جالوناً من اللبن .

١٧٧.٥ رطلاً من الفاكهة .

١٧٧.٥ رطلاً من السكر .

٥.٧٥ رطلاً من الشاي .

٢.٥ رطلاً من البن .

٢٤ جالوناً من البيرة .

وكان متوسط استهلاك الأستراليين من السجائر في سنة ١٩٦٧ ٢١.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ سيجارة في السنة .

وتعتبر أستراليا خامس دولة فى العالم فى نسبة استهلاك البيرة وذلك طبقًا لإحصاء سنة ١٩٦٧ . أما اليوم فربما تغير ترتيبها إلى الرابعة أو الثالثة لأنها فى تقدم مستمر !

ومن الأقوال المأثورة لهنرى لوسون :

« إن البيرة الأسترالية تجعلك تشعر كما لا ينبغي لك أن تشعر بدون البيرة » . والأستراليون يستهلكون أربعة ملايين جالون من المشروبات الكحولية لكل عام . !

وتعتبر أستراليا ثاني دولة في العالم بعد أمريكا في نسبة استيراد الويسكي ذلك أن أستراليا تستهلك عشرة ملايين زجاجة ويسكي في السنة .

ولا أذكر أنني جلست في مطعم ووجدت دورق مياه على المائدة رغم أن حوالي ٣٩ ٪ من أستراليا محصور بين المدارين . بل والأعجب من ذلك أنني عندما أطلب الماء من النادل ينظر إلي وكأنني أتيت فعلاً فاضحاً ! .

وتشير الإحصاءات إلى أن عدد الذين يموتون بأمراض القلب في أستراليا يفوق عدد من يموتون بأي سبب آخر . وحسب إحصاءات سنة ١٩٦٤ فإن ٣٧٪ من جميع أسباب الوفاة في أستراليا يرجع إلى أمراض القلب ، كما أن في أستراليا أكبر نسبة في العالم لسرطان الجلد الذي يشكل ٧٠ ٪ من نسبة كل أنواع السرطان الأخرى . أما بالنسبة للأسنان فإن ٦٢ ٪ من الأستراليين يعانون من عطب في أسنانهم .

ومنذ سنة ١٩٥٠ فإن أطفال المدارس يزودون باللبن بالمجان على سبيل الوقاية من أمراض الأسنان .

* إن أكثر من أربعين بالمائة من سكان أستراليا اليوم مهاجرون وفدوا إليها بعد الحرب العالمية الثانية .

* وأستراليا أمة تعددية ـ ثقافياً Multic-Cultural ولهذه الظاهرة مضامين بعيدة المدى .

أما عن سكان أستراليا الأصليين المعروفين بالأبورجينيين New Austalian فيحدثنا التاريخ أنهم وجدوا على أرض القارة منذ عشرة آلاف إلى ١٢٥٠٠٠ سنة على أرجح الأقوال .

وتشير الدلالات الراهنة إلى أنهم نزحوا إلى أُستراليا من جنوب شرقي آسيا عبر أندونيسيا خلال طريقين رئيسيين : غينيا الجديدة ومضيق ستريت وكيب يورك .

وخلال تيمور وشمال غربي أُستراليا .

وفي بداية استعمار الرجل الأبيض لهذه القارة على نحو مستقر في سنة ١٧٨٨ كانت توجد خمسمائة «لغة» أبوريجنية وحوالى ٦٨٠ لهجة من لهجات القبائل .

وكان متوسط عدد كل قبيلة يتراوح بين ٤٠٠ و٤٠ وعددها الإجمالي ٣٠٠,٠٠٠ ثلاثمائة ألف .

وقصة إبادة الأبوريجنيين خصوصاً في تسمانيا تلطخ الرجل الأبيض المستعمر بوصمة عار أبديه .

وفي أُستراليا اليوم دراسات ومحاولات جادة للنهوض بأحوالهم ورد اعتبارهم ومساواتهم في الحقوق والواجبات ببقية المواطنين .

والمشكلة في أساسها تربوية واجتماعية وتحتاج إلى وقت طويل .

وبالنسبة لكثافة السكان في أستراليا فجدير بالذكر أن أول تعداد رسمي لأُستراليا كان في سنة ١٨٢٨ .

وتعتبر أُستراليا من أقل القارات كثافة في السكان (٣و٨٧ ./ نسمة في كل ميل مربع) .

وأعلى نسبة هي ـ ٢٣١ ـ أوروبا .

وـ ١٦٣ ـ آسيا .

وأقل نسبة ـ ٢ ـ ليبيا .

وكان تعداد السكان في أستراليا سنة ١٨٥٨ حوالي مليون نسمة

وأصبح خمسة ملايين في سنة ١٩١٨ وعشرة ملايين سنة ١٩٥٩ . وخمسة عشر مليوناً في سنة ١٩٨٣ .

كانوا يطلقون عليها من قبل اسم استراليشيا Australasia

وهذه الكلمة كما يفسرها لنا قاموس اكسفورد Oxfod

كانت تطلق على أستراليا والجزر المجاورة لها .

ومعنى هذا .. أن أستراليا .. وجزر فيجي Figy وجزر الهند الشرقية . المعروفة اليوم باسم إندونيسيا وبلاد الملايو .. أو ما يعرف اليوم باسم ماليزيا كانت تعتبر منطقة جغرافية واحدة .. وبالتالي فإن تبادل الزيارات بين أستراليا وهذه الجزر كانت قديمة ووثيقة . وهي زيارات تقليدية لا تزال تحدث حتى هذا اليوم .. وسواء أكانت هذه الزيارات اختيارية لصيد السمك واللؤلؤ .. أم اضطرارية بفعل الأنواء والعواصف . فقد وجد العلماء آثاراً ومخلفات لزيارات قام بها بعض سكان الملايو وإندونيسيا إلى الشاطئ الشمالي الغربي من أستراليا .. إلا أن هذه الزيارات توقفت عند الشاطئ .. ووقفت الصحاري والقفار مانعاً عن التوغل إلى الداخل ..

وسنرى فيما بعد .. أن هذا المانع الصحراوي الذي وقف حائلاً في طريق التوسع إلى الداخل .. كان هو السبب الحقيقي لانتشار الإسلام في القريب العاجل ..

كان أول اتصال لأستراليا بالتاريخ الحديث في أبريل ١٧٧٠ م ففي هذا الشهر هبط الكابتن كوك[١] James Cook إلى

---

(١) كان أول إنجليزي نزل إلى الشواطئ الأسترالية هو «وليم دامبير» الذي نزل على الساحل الشمالي الغربي ١٦٨٨ م .

الشاطئ الأسترالي في منطقة تعرف اليوم بـ (خليج بوتاني " Botany Bay) أحد شواطئ مدينة سيدني عاصمة ولاية نيوسوث ويلز) .

لقد أصبحت أستراليا ـ منذ ذلك اليوم ـ جزءاً من ممتلكات التاج البريطاني أو الإمبراطورية التي لم تكن تغيب عنها الشمس في الواقع والحقيقة .

ولم يكد يمضي على اكتشافها عشر سنوات حتى تحولت إلى منفى للمجرمين والخارجين على القانون .. كانت بداية سيئة من غير شك .. فقد مارس هؤلاء المجرمون هوايتهم السابقة مع سكان أستراليا الأصليين « الأبوريجنال » .

وكما حدث ـ للهنود الحمر ـ في أميركا تكررت المأساة نفسها هناك في أستراليا ...

* * *

إن المجتمع الأسترالي جسم أنهكته العلل .. وتمكنت منه الأمراض التي تعرض بقاءه للزوال والخطر .

أول هذه العلل شرب الخمر ...

وثاني هذه العلل لعب القمار ...

وثالث هذه العلل .. الإجرام ...

لقد نشرت إحدى المجلات العلمية .. ان الجريمة كلفت أستراليا فى العام الماضى ٣/٠٠٠/٠٠٠/٠٠٠ ثلاثة بلايين من الدولارات الأسترالية .

وتقول المجلة : (١) Bulletin

---

(١) سنة ١٩٨٠م .

إن هذه النسبة أو الجريمة سترتفع في هذا العام إلى الضعف .. وقد بدأ التسيب في الإدارة البوليسية . يأخذ صفة المرض أو التواطؤ .. وقد عزل أكثر من ثلاثين ضابطاً من كبار الضباط نتيجة لهذا الإهمال .. كما جاء في جريدة صنداي تلغراف . Sunday telegraph

وكما تقول هذه المجلة :

فإن رجال البوليس كانوا يحملون السجناء الأغنياء إلى بيوتهم كل ليلة لقضاء هذا الليل في بيوتهم .. ثم يعودون بهم في الصباح إلى السجن .. وهكذا كان يتكرر هذا المشهد كل يوم ...

إن معدل ما يشربه الأسترالى من البيرة والخمر شيء مفزع . وقد تنبهت هيئة الصحة العالمية إلى هذه الظاهرة فحذرت من استبدال دم أى أسترالى بدم أى مريض آخر .. لأن الدماء الأسترالية تحتوى على نسبة عالية من الكحول . والجريح أو المريض الذى تدعو الحاجة إلى استبدال دمه بدم أى أسترالى أشبه بالمستجير من الرمضاء ـ أى المرض ـ بالنار أى الكحول أوالدم الأسترالى المعتق .. !

* * *

فى الطريق إلى المسجد أو المركز الإسلامى الكائن بمنطقة سرى هيلز Surry Hills فى شارع الكومنولث Common Wealth

يواجهك مصنع من أكبر مصانع الخمور اسمه Toohey's وعلى مسافة خمسين متراً من المسجد يوجد معهد أو مصحة لعلاج المدمنين اسمه ويليام بوث انسيتيوت William Booth .. وبعد خمسين متراً من المسجد تفاجأ بالساقطين على قارعة الطريق من فرط الإدمان والشرب .

وعلى بعد مائة وخمسين متراً من المسجد يوجد وكر من أكبر أوكار القمار اسمه Tab ونطقها باللغة العربية « تاب .. » ولا أدري « تاب » من أي شيء أمن الخمر أم من القمار .. أم من الذهاب إلى المسجد ...

وقد تعجب إذا سافرت إلى أستراليا .. واخترت لإقامتك مدينة سيدني ... وخطر ببالك أن تقوم بجولة إلى ضاحية اسمها « مانلي » Manly فلسوف تعبر كوبرياً جميلاً Harbour Bridge ولكن تريث .. انك لا بد أن تدفع مبلغاً معيناً قبل هذا العبور بسيارتك إلى الجهة المقابلة من الكوبري ..

أما لماذا ؟ فإليك القصة ..

لقد بني هذا الكوبري منذ حوالي خمسين عاماً .. بنته شركة إنجليزية تعهدت بالإنفاق عليه .. وتقسيط ثمنه .. إن الثمن لم يسدد بعد والضريبة التي يدفعها راكب السيارة تكاد بالكاد أن تسدد فوائد هذا المبلغ .. حتى السكة الحديد ... لقد احتفل بمرور مائة وخمسة وعشرين عاماً على تسيير أول قاطرة بخارية في ولاية نيوسوث ويلز [(١)] « لقد أنشأت هذه الهيئة .. هيئة السكة الحديد في سيدني شركة إنجليزية .

ثم أجرتها بعد ذلك للحكومة الأسترالية نظير مائة وخمسة وعشرين مليوناً من الدولارات سنوياً .

وقد نص في عقد الإيجار أن تسلم مرافق الهيئة ــ بعد انتهاء المدة المتفق عليها في عقد الإيجار ــ أن تسلمها كاملة وفي حالة جيدة .

---

(١) ١٩٨٠ م .

أما هذه الملايين التي تدفع فهي أشبه بالفوائد ـ أي الربا ـ الذي تصطبغ به الحياة الأسترالية في كل مرفق . ويمارسه ويأكله كل أسترالي سواء أكان مسلماً أو غير مسلم ..

* * *

إن الملل والكسل ـ فى أستراليا ـ ظاهرتان تلفتان النظر ... وفى البيوت والشوارع ومحطات السكك الحديدية تلتقى بالكثير من الناس الذين يتحركون أو يجلسون إلى غير هدف ..

وقد زار رجل أمريكي أستراليا لمدة شهر فلما رجع إلى بلاده كتب يقول :

لست أدري لماذا لا يعمل الناس في أستراليا ؟ إنني تعودت النشاط . ولهذا لا أدري إن كنت سأرحب بالعودة إلى بلاد الكسالى مرة أخرى ... ؟ ..

وقد رد عليه الكاتب الأسترالي الشهير «برودريك» فكتب يقول ساخراً : من قال إن الأستراليين كسالى ؟ إنهم يلعبون بمنتهى الجد والحماسة ... ومثلما يبحث الأوربيون عن الأمن .. يبحث الأستراليون عن الفراغ .. ؟!

* * *

إن الأستراليين كما تقول إحصائية المعهد الأسترالي للشؤون الاجتماعية : ينفقون على القمار خمسة عشر بليوناً من الدولارات سنوياً .. أي خمسة عشر ألف مليون دولار .. ، وأهم أنواع القمار

عندهم سباق الخيل .. ان في أستراليا ستمائة ناد للسباق يجري فوق ملاعبها عشرون ألف حصان ..

وتقول الاحصائية :

إن القمار يمثل ١٨ ٪ المائة من الدخل العام بينما يمثل الطعام ١٧ ٪ من قيمة هذا الدخل .. !

* *

قلت فيما سبق .. إن أستراليا بدأت تعرف فى تاريخنا الحديث منذ عام ١٧٧٠م .. ثم اتخذتها بريطانيا منفى للمجرمين والخارجين على القانون فى عام ١٧٨٨م . إلا أن الصورة تغيرت بعد ذلك حين أعلنت أستراليا بلداً حراً مفتوحاً فى عام ١٨٤٠م .

لقد بدأت أستراليا مرحلة جديدة .. وبدأت الهجرة إليها بكثرة وتسابق الناس إلى السفر إليها طمعًا فى الثروة .

ولكن كيف .. ؟ لقد وقفت الجبال والقفار حائلاً وسداً منيعاً أمام التحول .. وبقيت أستراليا لغزاً أو طِلَّسما ...

فمن الذي يفسر هذا اللغز ؟ ويكشف أسرار هذا الطلسم ؟

إنها الجمال .. والرجال الذين يقودون هذه الجمال .. و بخاصة من بلاد « كشمير » و« بشاور » وبلاد « الأفغان » .

وكانت هذه أول خطوة للإسلام فوق أرض الأسترال ..

* * *

كان أول من وصل إلى أستراليا من المسلمين ثلاثة رجال من أهالى « كشمير » نزلوا فى ميناء « ملبورن » ومعهم أربعة وعشرون جملاً . ثم جاء

من بعدهم اثنا عشر مسلماً ومعهم مائة وعشرون جملاً ... ثم تتابع وصول هؤلاء المسلمين فى موجات متتابعة ومعهم الألوف المؤلفة من الجمال ..

كان لهؤلاء المهاجرين الفضل كل الفضل فى اكتشاف أعماق هذه القارة . وفى الربط بين أجزائها المختلفة .. وفى مد خطوط التلغراف ، ونقل صناديق الطعام والمياه وفى حمل المعدات والآلات وبعبارة موجزة : كان هؤلاء المسلمون شريان الحياة وفرسان الأمل والنجاة ..

وقد حافظ هؤلاء المسلمون على عقيدتهم بحرارة ، وراحوا يبنون المساجد في كل مدينة حتى بلغ عددها ستة وعشرين مسجداً ..

وكان منظراً مألوفاً لدى الأستراليين الذين كانوا ينتظرون قوافل هؤلاء الجمالين بفارغ صبر .. أن يروا هؤلاء المسلمين ، وقد أذنوا للصلاة ووقفوا في خشوع بين يدي الله ..

لقد حمل هؤلاء الإسلام إلى كل بلد سافروا إليه من « أدليد »[١] جنوباً إلى « داروين »[٢] شمالاً .. ومن « سيدنى »[٣] شرقاً إلى « بيرث »[٤] غرباً ومن « برزبن »[٥] فى أعلى القارة إلى « ملبورن »[٦] فى أقصى الجنوب ..

---

(١) أدليد عاصمة جنوب أستراليا .

(٢) داروين عاصمة الحدود الشمالية .

(٣) سيدني عاصمة ولاية نيوسوث ولز وهى أهم مدن أستراليا .

(٤) بيرث عاصمة غرب أستراليا . -

(٥) برزبن عاصمة ولاية كوينز لاند .

(٦) ملبورن عاصمة ولاية فكتوريا .

لقد قرئ القرآن في صحراء «فيكتوريا» قبل أن تقرأ الترانيم المسيحية وارتفع صوت الأذان في «كوينز لاند» . قبل أن يدق الناقوس فوق الكنائس في «أليس سبرنج» .

* * *

ومن طريف ما يذكر عن تاريخ الجمل في أستراليا أنه كان ثمة عوامل ارتباط بين نسبة الجمال فى أستراليا ونسبة الأفغان ومن أشهر الأسماء اللامعة في هذا الصدد تلك الشخصية الأسطورية التي دخلت في الأدب الأسترالي التاريخي المعبر عن النصف الثاني من القرن التاسع عشر وهي شخصية «عبد الوادي» وغيرها مثل شخصية «علي» الفيلسوف و «فايد محمد» الفارس وكلها شخصيات كان للجمل والناقة دور هام على مسرح أحداثها .

ومما يروى أن هذه الطائفة من الماهدين «لثقافة الجمل» Camel-Culture فى أستراليا والتى تجمع بين القومية الأفغانية والدين الإسلامى وتقاليد الأغراب من أصحاب الجمال والنوق . أنهم احتفظوا بأزيائهم القومية الأولى ولم يغيروها كما احتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم فى الضيافة والكرم .

وعندما قدموا لأول وهلة إلى أستراليا يقودون جمالهم كانوا ذكوراً بلا إناث ومن ثم اضطرتهم الظروف للزواج من نساء أستراليات مما أدى إلى سرعة الإندماج والتكامل في مقامهم الجديد . ومما أدى أيضاً في المدى الطويل إلى إنتاج سلالة من الأستراليين تجمع بين خير ما فى هذا المزيج من صفات جسمية وسمات وملامح وسجايا وخلال (١) .

(١) دكتور محمد العريان . قبسات من القصص الأسترالي ص ٧٣ .

ومن أعلام المسلمين الذين تركوا بصماتهم في التاريخ الأسترالي مسلم أفغاني اسمه شيخ بيجاه درويش . وكان رئيس الجمالين في حملة كالفرت Calfert بقيادة المستكشف ويلز Wells وقد كتب «ويلز» في مذكراته عن هذا الشيخ قصة شيقة تؤكد ما كان لهؤلاء المسلمين من فضل وأي فضل ...

يقول ويلز :

لقد أظهر «شيخ بيجاه» قوة فائقة على الاحتمال وقد أنقذني أنا ومن معي من هلاك محقق .. وأنا أدين له بحياتي ... فقد ضلت القافلة الطريق ، ومضى على الجمال سبعة وعشرون يوماً لم تذق فيها قطرة ماء .

وهنا التفت إلى شيخ بيجاه وقلت له :

ها قد نفد الماء .. وأوشك الطعام على النفاد ولم يبق إلا أن تعرض على الجمال الصوم عن الطعام كما فرض عليها الصوم من قبل عن الماء .

وبهدوء وطمأنينة ولا مبالاة قال الشيخ «درويش بيجاه» ..

ـ وأنا سوف أصوم معها ...

يقول ويلز :

كانت مفاجأة لي أن يبتسم ذلك الشيخ المسلم ونحن على أبواب كارثة .

ثم يقول ويلز :

وفى غمرة الألم والانفعال والخوف حاول اثنان من المكتشفين السير فى

اتجاه معين للبحث عن ماء .. ولكن « شيخ بيجاه » .. حذرهما من السير في هذا الاتجاه .. لأنه بحاسته الفطرية أدرك فشل هذه المحاولة ثم قال :

لا تفعلوا وإلا فالموت ينتظركم هناك ..

فلم يستجب له أحد ... ثم مضيا في الطريق الذي حذرهم منه الشيخ .. وعندما طالت غيبتهما خرج الشيخ « بيجاه » للبحث عنهما بعد يومين .. ثم رجع .. رجع ومعه ما تبقى من حطامهما التالف في غمرة اليأس ..

ويقول ويلز :

بعد هذه الحادثة أشركت معي شيخ بيجاه في قيادة الحملة فسار بنا في درب لم يكن يخطر لنا على بال .. ولم تمض سوى أيام قليلة حتى لاحت لنا من بعد مدينة أدليد Adelaid

فوقفت ومن معي خاشعين أمام الرجل الذي وهبنا الحياة .

ويتابع ويلز حديثه قائلاً : لم نشأ أن ندخل مدينة أدليد ونحن فى هذه الحال الرثة والضعف .. لقد آثرت الانتظار ريثما نسترد أنفاسنا اللاهثة وقوانا المفقودة .. ثم أرسلت بمن يخبر حاكم المدينة ويحضر لنا شيئًا من الطعام .. ثم بقيت طوال الليل أفكر فى المصير الذى كان ينتظرنا ، وفيمن أنقذنا .

أهو « إله » بيجاه درويش ، وصلواته المخلصة أم إيمانه الذي أنتصر به على كل مشكلة ، أم هي حاسته الفطرية المرهفة ؟

لقد رد شيخ بيجاه ولم يتركني أسترسل مع كل هذه التساؤلات ..

« إنه ربي الذي أسلمت له وجهي .. ومن يسلم وجهه إلى الله بإخلاص يهديه سواء السبيل . »

وفي الصباح تحركت القافلة إلى ادليد Adelaid . واستقبل الشيخ بيجاه درويش كأعظم فاتح . لقد أقيمت له مأدبة ملكية . وأنعم عليه بأرفع وسام وحفر اسمه في تاريخ أستراليا بحروف من نور ..

* * *

ومنذ ذلك التاريخ ... والإسلام ينتشر في أستراليا .. وكان هذا الانتشار مرتبطاً بحركة هؤلاء المرشدين والأدلاء من مسلمي الأفغان والهند ثم جاءت فترة ركود توقفت فيها هذه الحركة ، وانحسر فيها هذا المد . وذلك بعد صدور القانون الذي يحرم على الملونين والآسيويين دخول أستراليا في سنة ١٩٠٢ .

لقد ارتفعت صيحات تطالب باستمرار استراليا كدوله بيضاء Keep Australia White وطغت موجات العنصرية البغيضة لأي كائن ملون .

وكان هذا القانون بمثابة رتاج أحكم إغلاقه على ٦٠١١ ستة آلاف وأحد عشر مسلماً هم جملة من وصل إلى هذه القارة .

وبمرور الزمن .. والبعد عن الوطن .. وفقدان الرائد المسلم . وضغوط الحياة المادية وإغراءاتها الشرسة .. بدأت هذه الألوف تتوارى .. وتنكمش ثم تذوب وتتأقلم حتى تزوجت المسلمة بغير المسلم .. ونشأ جيل مخلط ومهجن .. وشيئاً فشيئاً ... اختفت الشعائر .. وخفت صوت المؤذن من فوق المنائر ... ولم يبق للإسلام فى نهاية هذه المرحلة سوى ثلاثة مساجد لم يكن يدخلها سوى قلة لاتتجاوز العشرات[1] .

---

(١) دكتور علي الحديدي مجلة العربي .

بعد الحرب العالمية الأولى ... وبالضبط في عام ١٩٢٤ م بدأت مرحلة جديدة من الهجرة الإسلامية إلى أُستراليا ... فقد سمحت الحكومة لعدد من الأوربيين الذين شردتهم هذه الحرب بالهجرة إليها .. فجاء مع من جاء عدد محدود من المسلمين في شبه جزيرة البلقان «بلغاريا .. البانيا يوغوسلافيا .. تركيا» ولم يكن هؤلاء القادمون أحسن حالاً من المستوطنين الأوائل .. كانوا أشتاتاً من المشردين التائهين .. فقد كانت معرفتهم بالدين وتعاليمه محدودة وكان جل همهم موجهاً إلى البحث عن لقمة العيش .

وبالرغم من تماسك البعض أمام مغريات الحياة الجديدة إلا أن البعض الآخر آثر الدعة . والاندماج فى المجتمع الأسترالى بكل مفاهيمه وعقائدة .

لقد خدث أن مسلماً تركياً من «استنبول» هاجر بأسرته الكبيرة .. لقد طرق الرجل هناك كل الأبواب الموصدة فلم يوفق .. فعرض عليه التنصر هو وأسرته فوافق ..

إن عدد أفراد أسرة هذا الرجل بلغت مائتي رجل وامرأة منها مائة وستون من الكاثوليك وأربعون من البروتستانت ... !

* * *

إن أستراليا دولة علمانية .. والحرية الدينية فيها مكفولة .. ولكن الجمعيات التبشيرية تعمل هناك بنشاط وهمة .. ان الكنيسة الكاثوليكية مثلاً .. تملك إذاعة خاصة .. ولها مدارسها و جامعاتها الخاصة ..

هناك ... ستجد من يطرق بابك .. ثم يستأذنك في الدخول لحظة .. وهناك تفاجأ بهذا الزائر يعرض عليك إيمانه .. ويغريك

باقتفاء أثره .. وقبل أن ينصرف يترك لك كتاباً أو صليباً على سبيل البركة .

إن للكاثوليك نشاطاً واسعاً .. وبخاصة بين المهاجرين المسلمين لقد حدثني مهندس مصري مسلم أن أول من استقبله . واستضافه كان مندوبًا عن الكنيسة ..

وشهود « يهوه » ان لهم نشاطاً مكثفاً .. قوم يتميزون بالبجاحة . والإلحاح والشراسة .. انهم لا يكلون لحظة من النهار أو الليل ، ويذهبون إلى كل بيت .. وقد حدث قبل أن أغادر أستراليا بأشهر قليلة أن اغتيل أحدهم بعد أن ارتفعت حرارة الجدال والنقاش بينه وبين الرجل الذي استضافه في بيته ..

إن بين يدي خريطة وضعتها الكنائس الأسترالية لتنصير المسلمين في العالم كله ... وقد اختطت هذه المؤسسات أسلوباً جديداً للتنصير المقنع .. أو الذبح بدون إراقة دم ...

* * *

بعد الحرب العالمية الثانية ... توافد المسلمون إلى أستراليا بكثرة[١] .

لقد شعرت الحكومة الأسترالية ان سياسة العزلة ... سوف تقودها في النهاية إلى كارثة . فأستراليا قارة كبيرة . وإمكانياتها المادية هائلة .. ثم إنها أي أستراليا لا يمكن أن تستغل ثرواتها إلا بالأيدي العاملة .. ولتحقيق ذلك لا بد وأن يفتح من جديد باب الهجرة ...

لقد أقبل المهاجرون من كل جهة .. لم يكن يسأل المهاجر عن

---

(١) المصدر السابق ..

دينه أو عقيدته أو ماضيه أو حاضره .. كل ما كان يهم فقط . . هو انتماء المهاجر السياسي .. فإن كان شيوعياً منع ... أما ما عدا ذلك فلم يكن سبباً لمنع أي أحد ..

في موجا ت هذا المد من الهجرة إلى أستراليا جاءها مسلمون من لبنان وقبرص وفلسطين وسوريا وألبانيا ومصر وروسيا ويوجوسلافيا وتركيا ، وهؤلاء هم الموجة الثالثة من الهجرة الإسلامية إلى أستراليا والتي ما زالت متواصلة إلى اليوم ، ومسلمو المرحلة الثالثة من المهاجرين يمثلون الدم الجديد الذي يتدفق اليوم في شرايين الحياة في الجاليات الإسلامية في أستراليا .

فقد جاءت وفود هذه المرحلة من المهاجرين المسلمين تملأهم الحماسة والثقة في دينهم . وتدفعهم عناصر الاستجابة للتطور الذي طرأ على العقلية المسلمة في فهم الدين فهماً صحيحاً خالياً من الشوائب . والجمود في التقليد الذي لحق بالإسلام في عصور الظلام الفكري . وهؤلاء اليوم هم السواد الأعظم الذي يسود الجاليات الإسلامية في الولايات الأسترالية .

وهناك تيار آخر يدخل الإسلام عن طريقه إلى أستراليا على أيدى الطلاب المسلمين القادمين من آسيا طلباً للعلم فى معاهد أستراليا وجامعاتها وهم من الهند والباكستان والملايو وإندونيسيا والفلبين وتايلند والدول الآسيوية الأخرى ، يأتون على منح دراسية تقدمها أستراليا أو المنظمات الدولية أو يأتون على نفقتهم الخاصة للتعلم ، هؤلاء الطلاب المسلمون يمثلون ركناً مهماً من الحياة الإسلامية فى أستراليا . فهم يختلطون بزملائهم الأستراليين فى معاهد العلم وبالأسر الأسترالية ، ويحتفلون بالمناسبات الدينية

الإسلامية. ويشركون معهم زملاءهم الأستراليين ومعارفهم من الأسر الأسترالية، ويقيمون الشعائر الدينية، ويشتركون فى النشاط الثقافى والاجتماعى والدينى مع الجاليات الإسلامية المستوطنة.

وفريق آخر من المسلمين يعيشون في أقصى شمال القارة قرب «داروين» عاصمة الإقليم الشمالي في أستراليا وفي الجزر المجاورة لها كجزر «كوكو» و«نارو» وأكثرهم من جنس الملايو. ويعملون فى صيد اللؤلؤ. وقد جاءوا إلى هذه المنطقة من زمن بعيد، وانقطعت صلتهم بالعالم الإسلامي والثقافة الإسلامية فتحولت الحياة الدينية عند بعض المسلمين من سكان هذه المنطقة المتفرقين إلى مزيج من تعاليم الإسلام وبقايا من العادات والتقاليد الدينية لقبائل «الأبوربجينز» سكان أستراليا الأصليين.

ولعل أكثر ما يشد انتباه الباحث في الهجرات الإسلامية إلى أستراليا سكان جزيرة «فيجي» وهي إحدى الجزر القريبة من أستراليا. وكانت إلى عهد قريب تحت الوصاية الأسترالية ثم نالت استقلالها.

فالجالية المسلمة في هذه الجزيرة أقرب جاليات المنطقة إلى الإسلام الصحيح وأكثرها شبهاً بالعرب بملامح أفرادها وسمتهم العربي الخالص، وقامتهم الفارعة وأسمائهم العربية واعتزازهم بالنفس والكرامة والدين».

من جزر «فيجي» كما يقول المسلمون في هذه الجزيرة. يظهر أول ضوء للنهار ويسمع أول أذان... وقد انتشر الإسلام في هذه الجزر على أيدي العمال المسلمين القادمين من باكستان والهند والذين كانوا

يعملون في مزارع المطاط وقصب السكر وحين رآهم الناس يصلون سألوهم عن أصل هذه العبادة التي رآها سكان هذه الجزر لأول مرة ، ومن ثم بدأ تعرفهم على الإسلام واعتناقهم لهذا الدين ... كما يوجد في جزيرة « نيوكالدونيا » New Kalidonia التي تقع بين أستراليا وبين جزر فيجي حوالي ٢٥٠٠٠٠ مائتان وخمسون ألف مسلم يرجع معظمهم إلى أصل صومالي أو جيبوتي ... ويتعرضون لغزو تبشيري لا يملكون إزاءه حولاً ولا طولاً .

الجمعيات الإسلامية :

إن في أستراليا حوالي ٥٥ خمس وخمسين جمعية إسلامية موزعة كالآتي :

* خمس عشرة جمعية في ولاية نيوسوث ويلز .
* ثلاث عشرة جمعية في ولاية فكتوريا .
* وخمس جمعيات في ولاية غرب أستراليا .
* أما باقي الجمعيات فموزعة في الولايات والمقاطعات الأسترالية الأخرى .

كما يوجد عشرة مجالس ولايات بمعدل مجلس واحد لكل ولاية أو مقاطعة بما في ذلك مجالس كل من جزيرة كريسماس Chrismas وجزيرة كوكوس Cocos .

إن عدد المسلمين في أستراليا الآن يتراوح بين ١٨٠/٠٠٠ مائة وثمانين ألفاً ومائتي ألف ... وما يذاع من أرقام خلاف هذه الأرقام مشكوك في صحته ، ولا سند له .. وتعتبر الجالية التركية أكبر جالية

إسلامية ـ خارج الإطار العربي ـ ولهذه الجالية مساجدها الخاصة بها ومن أهم مساجد هذه الجالية مسجد ردفرن Redfern الذي كان كنيسة في الأصل .. ثم مسجد أرسكين فيل Erskine Ville

ثم تأتي الجالية اليوغسلافية في الترتيب الثاني بعد الجالية التركية ولهذه الجالية مسجد خاص أيضاً بها .

وهناك بضعة ألوف أخرى ـ من المسلمين القبارصة والألبان وان كان عددهم قليلاً .. وأثرهم ضعيفاً .

أما الجالية اللبنانية فتمثل أكبر تجمع إسلامي عربي في أستراليا . وفي ضاحية «لاكمبا» Lakemba شيدت هذه الجالية مسجداً كبيراً هو مسجد الإمام علي الذي يعتبر أكبر مسجد في أستراليا .. وفي هذه الضاحية ... ضاحية «لاكمبا» يقيم أكثر المسلمين من لبنان وستفاجأ حين تسير في شوارع هذه الضاحية باللغة العربية مكتوبة على واجهة المحلات والمطاعم .. وستجد الخبز اللبناني والحلوى اللبنانية معبأة في أكياس من النايلون ... .

وكما هو شأن اللبنانيين في أي مكان . فقد استطاعت هذه الجالية اللبنانية (مسلمون ومسيحيون) أن تترك بصماتها في أي مكان تذهب إليه .. بل ستفاجأ بصحف عربية تحمل أسماء ـ صوت المغترب ـ وصدى لبنان ـ والنهار والتلغراف .

وفي الأوتوبيس ... والقطار ـ تفاجأ بالسيدات اللاتي يتجاذبن أطراف الحديث عن أقاربهن الموجودين في بيروت أو طرابلس ...

ولن تعدم في وسط الزحام رجلاً يمشي متبختراً في شارع جورج ستريت George St وقد وضع على رأسه الطربوش

بينما تدلت عند وسطه سلسلة ذهبية تشير إلى أصله العريق في « بعلبك » أو صيدا وصور ...

ونعرض فيما يلي نبذة عن بعض هذه الجمعيات وجنسية كل منها :

الجماعة المصرية :

يوجد فى سدنى مجموعة من المصريين بعضهم من المثقفين وبعضهم من العمال أو ذوى الحرف ، وينتظم المصريون فى جمعيتين إسلاميتين بمدينة سيدني وأكثرهم يؤدون صلاتهم في المركز الإسلامي الذي يقوم عليه اللبنانيون أو في مسجد الملك فيصل بمنطقة سري هيلز ـ وليس من الحتم أن يكون لهم مسجد خاص ، ولكنهم إزاء اختلاف الأئمة وضياع اللغة العربية من أبنائهم ـ يبدون قلقاً بالغاً ، ويتطلعون أيضاً إلى وفود إمام أزهري في مسجد الإمام علي أو في أي مكان ، والظاهرة البادية فيهم هي حسن انقيادهم وطاعتهم للإرشاد الديني ، ثم هم قلقون جداً على أبنائهم إذ هم في مدارسهم الأسترالية لا يتعلمون العربية ولا الإسلام . ولكن يتعلمون الإنجليزية والديانة المسيحية .

الجماعة الإسلامية التركية :

هذه الجماعة أكثر الجماعات الإسلامية تنظيماً ونشاطاً ، إذ يوجد فى حى من أحياء سدنى نحو [1] ٧٠٠٠ سبعة آلاف أسرة تركية ، يقيم أبناؤها جميعاً

---

(١) رد فرن

فى مساكن متقاربة أو متلاصقة ، وفى وسطها مسجد لهم ، ويبلغ أعضاء الجمعية التى تشرف على المسجد والنشاط الثقافى حوالى ألف عضو . ويؤدون اشتراكات تختلف بين شخص وآخر حسب قدرته المالية كما يجمعون زكاة أموالهم ويخصصونها لهذه الجماعة . وإمام الجماعة تركى يتكلم العربية والإنجليزية بجانب التركية ، ويحفظ قدراً كبيراً من القرآن ، وفى مسابقة قرآنية فى دلهى ـ بالهند ـ كان ترتيبه الثانى ونال جائزة .

وينظم الإمام دروساً بالمسجد ويجعل منها دروساً خاصة بالسيدات ، ولكنه يستعمل اللغة التركية في تدريسه ، والآيات القرآنية التي يعرضها ينطقها بعربية سليمة . وهو يدرس الفقه الشافعي ولديه مجموعة من كتبه .

وبالمسجد مكتبة لا بأس بها ـ وبها كتب .. في ظلال القرآن « مترجماً إلى اللغة التركية وفقه السنة وفقه الزكاة وكتب أخرى لتعليم اللغة العربية والنحو العربي ولكن الذين كانوا بالمسجد استعملوا اللغة الإنجليزية ، ولست أدري مدى معرفة تلاميذهم باللغة العربية ، ولكن لهم مدرسة يتعلم فيها أبناؤهم آخر الأسبوع مبادئ الإسلام واللغة العربية بينما يوجد بعض الكبار الذين يعنون بهذه الدراسة ويتداولونها طوال الأسبوع .

جمعية المرأة المسلمة :

هذه جمعية تستحق أن تذكر . وليست جمعية بالمعنى الحقيقي ، ولكن أهميتها ترجع إلى عملها وعمل مؤسسيها ـ فالقائمان عليها هما : صديق البقلي وزوجه سلمى البقلي ، وهما انجليزيان أصلاً . اعتنقا

الإسلام ، وافتتحا مدرسة صغيرة لتعليم الأطفال اللغة العربية وآيات من الذكر الحكيم ، وتطوعت بعض السيدات بالتعليم فيها ولا يزيد عدد تلاميذها من الأطفال عن خمسين تلميذاً وتلميذة ، وهي آخذة في النمو .

كما تقوم السيدة بقلي بتوفير الملابس الإسلامية للمهتديات من بنات أستراليا اللائي يدخلن في الإسلام ..

جماعة ولنجتون :

سميت هذه الجماعة باسم الحي الذي هي به ـ ولها مسجد يسمى باسم « مسجد بلال » وأعضاء الجماعة أخلاط من ، تركيا ولبنان وسوريا والمجر وغيرها ، ويبلغ عدد المسلمين في المنطقة كلها ٥٠٠٠ خمسة آلاف ، ومسجدهم صغير ولكنه نظيف أنيق تلحق به مكتبة بها بعض كتب الفقه وكتب التفاسير والحديث وعدد من المصاحف ، وهم في غاية التعطش والشوق إلى إمام أو مدرس للإسلام والعربية .

كما توجد جمعية نيوسوث ويلز Islamic Society of N.S.W. وهي من أهم الجمعيات في مدينة سيدني وتشرف على المركز الإسلامي الملحق بمسجد الملك فيصل ..

وقد تم في السنوات الأخيرة إنشاء اتحاد عام للجمعيات الإسلامية في أستراليا The Australian Federation of islamic Councils- A.F.I.C. ويشرف على هذا الاتحاد ـ بحكم قانون تكوينه ـ جميع الأنشطة الإسلامية في هذه القارة ، ويتم انتخاب رئيسه عن طريق رؤساء مجالس الجمعيات الإسلامية في مختلف الولايات

الأسترالية وينتخب الرئيس لمدة سنتين . ويجوز إعادة انتخابه لمدة ثانية على الأكثر .

في ملبورن :

ملبورن إحدى المدن الكبرى في جنوب أستراليا ، وبها جالية إسلامية كبيرة تلي الجالية التي في سدني ، ويوجد في ملبورن مسجد كبير منظم تلحق به مكتبة كبيرة ، وبعض المكاتب ، واستعداده جيد ومساحته كبيرة .

وخطا المسلمون في ملبورن خطوة أفسح في تعليم اللغة العربية والإسلام فاشتروا كنيسة قديمة وهيأوها لتكون مدرسة إسلامية تدرس إلى جانب المنهج الأسترالي المدني ـ تعاليم الإسلام واللغة العربية لتكون هي اللغة الثانية بعد الإنجليزية وتهيئ أبناءها عند نهاية القسم الثانوي إلى دخول امتحان الشهادة الثانوية الأسترالية ولكن المدرسة في بدايتها ، وقد أبدى ناظرها رغبة ورجاء في إمداد المدرسة بمدرسين عرب يدرسون الإسلام واللغة العربية .

التيارات المعارضة :

توجد في أستراليا تيارات معارضة تعوق الفكرة الإسلامية وتسبب لها كثيراً من الإيذاء وكثيراً من المشاكل .

فهناك أولاً : الجماعات القاديانية ، وهي تذيع مبادئها المعروفة من أن محمداً ليس آخر الأنبياء ، وأن ميرزا غلام أحمد حفيده ومن ذريتهما أنبياء ، ويؤولون الآية .. «ولكن رسول الله وخاتم النبيين»

«بأن» محمداً صلى الله عليه وسلم ، زينة الأنبياء وجمالهم وأن الأنبياء من بعده كأنبياء بني إسرائيل يبشرون بالقرآن كما بشر أنبياء بني إسرائيل بالتوراة ، وأن الآية «ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد» تعني أحمد غلام زعيم الجماعة الأحمدية القاديانية ... الخ» أفكارهم المعروفة وكانوا يستعدون لاستقبال زعيمهم في آخر شهر سبتمبر ١٩٨٣ .

وهناك طائفة من الأقباط المهاجرين ، وهم يخرجون نشرات متتالية تطعن فى الإسلام ونبى الإسلام وتنقد القرآن وتتهمه بالتحريف وضياع أجزاء منه وبالتناقض والخطأ النحوي .. وهكذا .

وهناك أيضاً جماعة المبشرين المسيحيين يرددون هذه النغمات نفسها . ولهم مقالات وخطب ونشرات تبغض الإسلام لدى الناس وتظهره خرافة لا معنى لها وتكرر بإلحاح إنه ليس ديناً ، وتتهم محمداً بمثل ما يتهمه به هؤلاء السابقون .

موقف الحكومة :

الحكومة الأسترالية ديمقراطية تمنح رعاياها حرية واسعة ، بل ربما كانت التوسعة في هذه الحرية من عيوبها لأنها لم تمنعهم من مزاولة الرذائل الأخلاقية ، والذي يعنينا موقفها من الإسلام . وتصرفاتها إزاء المسلمين بقطع النظر عن أفكارها عن الإسلام ونظرتها العامة إلى المسلمين ، وهي نظرة تشيع بين العالم الأوربى كله ـ فهي كحكومة لا تحارب الإسلام ولا تحارب العربية ، وهي ترحب بإقامة المدارس الإسلامية الخاصة التى تجمع بين المنهج الأسترالى والمنهج الإسلامى ،

وتمنح الجمعيات الإسلامية معونات محدودة ، وأيضاً ليقيموا عليها مساجد أو مدارس لهم ، وفي مناهج المدارس الأسترالية الحكومية الآن ساعتان في كل أسبوع لدرس الدين أي دين غير الدين المسيحي - ويجد غير المسلمين من الهندوك والسيك والبوذيين ... معلمين يعلمون أبناءهم دياناتهم في المدارس الحكومية ولكن المسلمين يعانون من هذه المشكلة التي تستوجب حلاً عاجلاً من الدول الإسلامية .

الخطر الماحق :

إن هجرات المسلمين إلى أستراليا مستمرة ، وأن قلة سكانها وسعة أراضيها التي لم تستعمر بعد مما يجذب إليها المهاجرين ، والمسلمون مع طول الزمن أو بدونه طوله يذوبون فى الوسط المحيط بهم ، ويذوب معهم الإسلام واللغة العربية ، وتنشأ أجيالهم الجديدة لا تعرف ما هو الإسلام ولا ما هي اللغة العربية . ومعني هذا أن الإسلام يخسر كل يوم بعضاً من أبنائه ومن تعاليمه ومن لغته . فإذا أضفنا إلى هذا عوامل الهدم السافرة من المبشرين وأصحاب المذاهب المنجرفة وجدنا أن الإسلام أمام خطر ماحق حقًا .

ولدى المسلمين الآن في جوانب سدني أرض خالية معدة للبناء ، وبعضهم أعد لها بالفعل رسوماً معمارية ، ولكن تنقصهم المادة . وينقصهم المعلمون .

موقف الأزهر :

لا أشق على الأزهر فأطلب منه ما ليس فى طوقه ، ولكن حيث أبدى القوم استعدادهم لإعداد السكنى للمدرسين أو الأئمة الذين يبعث بهم

الأزهر ، فإن الواجب المبدئى أن يسرع الأزهر باختيار بعض الأساتذة من جامعة الأزهر لإمداد هؤلاء القوم بهم بسرعة كخطوة أولى يتدارك بها الموقف مؤقتاً .

ويستطيع الأزهر بعد هذا أن يجرى اتصالات مع الهيئات الدينية فى الدول التى تملك مادة لا تملكها مصر ، كدول الخليج كلها ـ لتكوين هيئة خاصة ، تتولى تهيئة الدعاة الإسلاميين ـ أئمة فى المساجد ومعلمين فى المدارس ـ وتعد لهم ميزانية خاصة تكفى رواتبهم ونفقات دعوتهم من الكتب والأجهزة الأخرى حتى يمكن إنقاذ الموقف أولاً ، ثم التبشير بالإسلام ثانياً . وبعد هذا الإعداد يمكن إرسال عدد أكبر من المدرسين والأئمة فإنه من الإثم حقاً أن تترك هذه القارة نهباً للدعاة المضللين ولا يرتفع فيها صوت الحق الذى لاحق غيره ، والدين الذى رضيه الله لعباده .

والأزهر ـ بوصفه أكبر وأشهر هيئة تقوم بتعليم الإسلام ونشره . عليه أن يبدأ بهذه المهمة وأن يقوم بالاتصال بهذه الجهات كلها لإنشاء هذه الهيئة، فالأزهر لديه الدعاة وهم لديهم الأموال ، ولا بد من التعاون أو التحالف من الجانبين إبراء إلى الله تعالى .

إن عدد المسلمين فى أستراليا يتراوح بين ١٨٠٠٠٠ وبين مائتى ألف كما قلت أي إن الإسلام هو الدين الثاني في أستراليا بعد المسيحية لأن عدد اليهود لا يزيد عن سبعين ألفاً .

سبعون ألفاً في العدد وان كان أثرهم أكثر من سبعين مليوناً في الواقع ... ولأضرب لذلك مثلاً :

هل سمعتم بقصة « التايمز » اللندنية

لقد اشتراها اليهودي الأسترالي مردوخ ... فمن يكون هذا الرجل مردوخ ؟ إنه يملك في أستراليا شركة طيران .. ANSET ومحطة تليفزيون .. ويصدر عدة صحف .. في أستراليا .. وبريطانيا والولايات المتحدة .. كما يملك مصانع ضخمة .. ويشكل الرأي العام في أستراليا على مزاجه ...

إنه نموذج فقط لهؤلاء السبعين ألفاً ..

هل تريدون مثلاً آخر ....

إن الحاكم العام لأستراليا .. وممثل الملكة فيها ... يهودى أيضًا ...

* * *

أما المسلمون المائة والثمانون ألفاً ... أو المائتا ألف ... فحالهم حال بقية المسلمين في أنحاء الدنيا ...

ولتقريب الواقع الإسلامي في أستراليا .. ولمعرفة حال هذه الجالية وما هي فيه بالضبط .. أنظروا إلى لبنان حالياً . نفس الصورة .. والخلافات ... والطائفية .. والتناقض .

هل تصدقون .. إن الأحزاب السياسية العربية توجد هناك فوق هذه الأرض .. البعث بجناحيه العراقي والسوري .. وجبهة أنصار الخميني والحزب الشيوعي العربي ... والحزب الاجتماعي السوري القومي والكتائبيون وحراس الأرز .. ومؤتمر الشعب الأساسي الليبي .. بالإضافة .. إلى الطوائف الدينية .. بكل مواريثها .. وتقاليدها وصراعاتها .

كنت أظن ان هذه الصراعات وهذه الخلافات .. قد تلاشت أو على الأقل قد ضعفت .. أو أن المهاجرين العرب قد ألقوا بها في

أعماق الباسفيك ... إن لم يكونوا فعلوا ذلك في المحيط الهندي .. أو بحر العرب .

بالإضافة إلى ..

فقدان القيادة الإسلامية الواعية ، وانصراف المتصدرين لهذا الأمر إلى التفاهات ـ والزعامات .. وانحصار معظم نشاطهم في إقامة المآدب والحفلات .

كانت تجربة أليمة بالنسبة لي ... لقد وصلت إلى أستراليا والحملة الضارية ضد الإسلام في قمتها ... في الصحف ... والإذاعة .. والتليفزيون ..

لقد اتخذ الإعلام الصليبي اليهودي من قضية «الرهائن» مادة لتشويه الإسلام .. وتصوير المسلمين وحوشاً مفترسة . وفى الطائرة من سيدني إلى كوالالمبور .. قضيت أكثر من ثماني ساعات في نقاش حاد مع رجل أعمال أسترالي اسمه مستر «والي» Welly في محاولة لإقناعه .. ولكن الرجل لم يدع لي فرصة للتكلم .. ثم قام بعصبية وفتح حقيبته «السمسونايت» . وقدم إليَّ كتاباً يتهم فيه المسلمين بالتعصب .. وقتل الهنادك والسيخ في الهند .

تصوروا .. المسلمون الضحايا .. والقتلى .. تحولوا في كتاب طبع في لندن .. إلى لصوص .. وقطاع طرق ..

* * *

لقد أعلنت في أول لقاء مع الجالية اللبنانية ان القضية الأولى والأخيرة هنا .. هي العقيدة .. تكون أو لا تكون كما يقول شكسبير في مسرحية البائس هملت ...

لينس كل منا أنه مصري .. أو لبناني أو باكستاني .. أو هندي .. يجب أن نكون مسلمين فقط ... وفي إطار هذا الإسلام نعمل ونتحرك .

* لقد دعوت إلى تشكيل «مجلس الأئمة» ... مجلس يضم كل الدعاة من الشيعة والسنة . والتزمنا في هذا المجلس بخطة إسلامية بحتة واتفقنا على تنفيذ هذه الخطة على مستوى القارة الأسترالية .. وفي مدينة «سيدنى» عاصمة ولاية نيوسوت ويلز خاصة .

* إن أيام العمل في أستراليا . كما هي في أية دولة أوربية تبدأ صباح الاثنين وتنتهي مساء الجمعة . ومن ثم لا بد من مضاعفة الجهد في أيام السبت والأحد ومساء الجمعة وقد نظمت لذلك حلقات العلم . ودروس تعليم اللغة العربية .

* أما بالنسبة لي شخصياً فقد كانت الصحف تعلن مشكورة عن تواجدي في المسجد من الساعة الحادية عشرة صباح كل يوم إلى الساعة الخامسة ..

ولقد كانت هذه الفترة .. فترة عمل مستمرة .. إما في تلبية الدعوة إلى كنيسة أو إجراء حوار في جامعة .. أو مناقشة الأستراليين الذين كانوا يحضرون إلى المسجد من الكليات والمدارس الجامعية المختلفة .

* * *

* لقد تبين لي .. منذ الشهر الأول بعد وصولي أستراليا .

أن قوة الإسلام وبقاءه رهينان بخطي دفاع أساسيين لا بد من إقامتهما بسرعة .

أما خط الدفاع الأول فيتمثل في دعم الروابط الأسرية والعائلية

أبناء الجالية الإسلامية .. ولتوضيح هذه النقطة ، ولأهمية هذه الفكرة . فقد تبين لي .. أن كثيراً من الفتيات المسلمات يتزوجن من غير مسلمين . وهو شيء منطقي في مجتمع صناعي مادي .. وشيء طبيعي أيضاً .. حين تتمزق أواصر الإخاء والتعارف بين أبناء العقيدة الواحدة في بلد علماني .

ومعنى هذا .. أن الجيل الثالث من المسلمين على الأكثر سينشأ جاهلاً كل شيء عن دينه وعن أصله . وبالتالي .. سيعود الإسلام غريباً كما بدأ غريباً في هذه القارة .

أنك ستفاجأ أيضاً عقب وصولك إلى أستراليا .. ان كثيراً من المسلمين يتخذون لهم أسماء أسترالية مسيحية بدل أسمائهم العربية المسلمة .

إن «محمود» يسمي نفسه «مالكولم» .. و«أحمد» اختار لنفسه اسم «ألن» و«مصطفى» قد يسمى بـ «مايكل» ...

أما «خديجة» فقد اختارت اسم «جوليا» .. وفاطمة أصبحت «فاي» أما «عائشة» فقد فضلت اسم «ريتا» ..

* * *

أما خط الدفاع الثانى بالنسبة لبقاء الإسلام واستمراره في أستراليا فهو التعليم ... التعليم الديني وتعليم اللغة العربية ...

إن أكثر أبناء وبنات المسلمين لا يكادون يعرفون عن دينهم أو لغتهم شيئاً لقد سمعت من كثير من الآباء والأمهات ان أولادهم قبل أن يذهبوا إلى الفراش يؤدون صلاة معينة بعد أن يلوحوا في الهواء

بحركات ترسم صورة الصليب على صدورهم .. لقد سمع الأطفال هذا ورأوه صباحاً في المدرسة ...

أضف إلى ذلك ...

ان الوالد يخرج مبكراً إلى العمل .. فإذا عاد .. خرجت زوجته هي الأخرى إلى المصنع ..

ثم ان الوالد والوالدة أصلاً .. لا يصليان .. أو يؤديان شعائر الدين لقد أصبح الدولار إلهاً ... وهمّ المهاجر من هؤلاء أن يشتري بيتاً ... ويملك سيارة .

فإذا علمت بعد ذلك .. ان أكثر المهاجرين إلى أستراليا هم من الطبقات الدنيا .. ومن العمال والحرفيين الذين وجدوا في أستراليا ما لم يجدوه قبل ذلك أصلاً .. يمكن أن تتصور مدى الاهتزاز النفسي في أعماق هؤلاء الذين فوجئوا .. بأسلوب الحياة المتطور .. ومناخ الحرية المتقدم ..

إن هذه القضية .. قضية التعليم الإسلامي هي أخطر هذه القضايا جميعاً .. صحيح أن هناك دروساً تلقى في بعض الأماكن لتدريس مبادئ الدين واللغة .. ولكن التلميذ المسلم يتلقى هذه الدروس من غير أكفاء .. وفى وقت يشعر فيه بالضيق من كثرة الأعباء ..

وقد حدث أثناء مشاركتي في مؤتمر الدعوة الإسلامية لمنطقة جنوب شرق آسيا والباسفيك الذي انعقد في كوالالمبور في مارس ١٩٨٠ ، أن التقيت بالشيخ الصالح الورع المرحوم عبد الله النورى من كبار علماء الكويت .. فعرضت عليه هذه المشكلة ... فأبدى استعداده لشراء بيت يستعمل كمدرسة في البداية .. فوافق الرجل على هذه الفكرة ..

ثم حضر في شهر سبتمبر ١٩٨٠ ومعه مائتا ألف دولار لهذه المهمة . ووعد بمائة ألف أخرى إذا كان في العمر بقية ..

* * *

لقد تم شراء بيت كبير في منطقة اسمها هبرفيلد

وسجلت المشروع كوقف .. واخترنا له مجلس أمناء من مختلف الجنسيات .. ونص في العقد .. انه في حالة عدم إتمام هذا المشروع تعود الأموال إلى أصحابها من غير نقص ..

* *

إن العمل الإسلامي في أستراليا . بل وفي أوربا يتسم بالأنانية والضحالة .. ان فرسان هذه الحلبة صدفة خالية من اللؤلؤ .. ولك أن تتصور ماذا يفعل محام جاهل يترافع عن قضية بريء اتهم بالقتل .. إن المتهم البريء يساق إلى ساحة الإعدام بدفاع هذا المحامي الذي لا يجيد حتى مجرد القراءة والنقل .. !

هل سمعتم بقصة المشعوذ .. الذي احترف الطب ..

لقد قرأ المسكين ان الخبة السوداء دواء من كل داء .. فاصطاد صاحبنا حيّة من هذا النوع الأسود وعالج بها المرضى من طالبي الشفاء فأودى بحياة كل من مد إليه يده من هؤلاء التعساء ... !

إن الأصل في هذه المأساة .. هي «الحبة» لا «الحية» ان نقطة واحدة تحت الباء قتلت من الناس ما لم تقتله الحرب في المعركة .. !

ولأضرب لكم مثلاً من أستراليا ..

لقد ذهبت فتاة خريجة جامعة أسترالية .. تشغل منصباً حساساً في مؤسسات الدولة ..

ذهبت إلى متزعم مسلم :
واليكم نص الحوار ...
ـ اسمي هيلين .. وأعمل .. .. وأريد أن أعتنق الإسلام ..
فقال لها متحمساً ..
مرحبا .. مرحباً ..
هل توافقين على قطع يدك إذا سرقت ؟
قالت : لا .. لا أوافق ..
فقال لها : هل توافقين على أن تقتلي بالحجارة إذا زنيت ... ؟
قالت بالطبع لا ... وألف لا ...
وهنا سكت صاحبنا ..
فقالت له الفتاة ..
هل هذا هو الإسلام .. ثم قامت فزعة .. ولا يعرف أحد إلى أين ذهبت .

* * *

إن أوربا .. تنهار .. تنهار روحياً .. وأخلاقياً .. وإنسانياً وليس إلا الإسلام حلاً لكل مشكلاتها وأمراضها وعللها ..

ولكن كيف ؟

إن التناقض الذي يعيش فيه المسلمون يقف حائلاً .. وسداً منيعاً أمام هذه الظاهرة .

لقد تعرف شاب من أصل هندي بفتاة أسترالية . أحبها ثم اتفق معها على الزواج ..

ولكن لا بد أن تسلم أولاً شيء جميل .. فكيف عرض عليها الإسلام ..

لقد قال لها في نوبة حماسة وغيرة ..

ـ الإسلام يحرم الخمر .. والخنزير ، والقمار ..

و.. وافقت الفتاة على الدخول في الإسلام دون تردد ..

وبعد الزواج ... بعد شهر فقط .. دخل عليها صاحبنا وفي يده لفافة .. لقد كانت زجاجة ويسكي ... !

وفي أسبوع لاحق .. شاهدته يلعب القمار في أحد النوادي ....

وعلى الفور أمسكت به وطلبت منه الطلاق ..

لقد أعلنت الفتاة في ملأ ... وأمام شهود من الأصدقاء قالت :

إما أن يكون هذا الشاب كاذباً .. واما أن يكون دينك هو الكاذب ...

* * *

وهذه هي مأساة الإسلام في أستراليا .. وفي غير أستراليا .... وفي كل أنحاء الدنيا ...

الحلقة الأولى من الحوار

- عندما يتكلم القرآن ...
- من هو خليفة الله فى الأرض ؟
- البشر كلهم إخوة ...
- عموم النظرة القرآنية وشمولها ..
- الإسلام .. رسالة كل الأنبياء ..
  دين .. كل العصور ...
- نعم .. ولكن . حول التوراة والإنجيل ..
- ماذا تقول دائرة المعارف البريطانية ؟
- كيف وقع التحريف .. ؟
- افتراءات وتناقضات ..
- اعتراف علماء اللاهوت ..
- التحريف الأخير فى أميركا ...
- وهكذا تحدث القرآن ...

ـ كانت الحلقة الأولى من هذا الحوار فى مبنى الكنيسة المتحدة بـ « استراثفيلد » . لقد كان من عادتى أن أذهب إلى المسجد قبيل الظهر ... وما أكاد أدلف إلى داخله حتى أسمع صفيراً تعودت سماعه كل يوم .. إنه ساعى البريد المستر جورج .. ذلك الرجل العجوز الذى أوشك أن يتقاعد ... لم يكن يضع رسائلى فى صندوق المسجد كما تعود .. بل كان يصر على تسليم رسائلى الخاصة يداً .. بيد .. لم أكن أتركه يذهب .. أحياناً كنت أدعوه لتناول قدح من الشاى .. أو أنزع طوابع البريد لأحفاده الصغار .. وأحياناً أخرى كان يستريح فى ساحة المسجد ريثما يتوقف هزيم الرعد والمطر المنهمر فى كل مكان ...

وذات يوم أذن لصلاة الظهر . وعم السكون فلا تكاد تسمع أي صوت .. وهنا حضر المستر جورج .. ودلف إلى داخل المسجد ليراني واقفاً أمام حشد من المصلين الملتزمين بالصمت .. وفي أدب جم ... استدار إلى الخلف ثم ترك رسالة فوق منضدة صغيرة كانت وراء الصف ..

كانت هذه الرسالة من الأب «جونز» راعي الكنيسة المتحدة باستراثفيلد ... Strathfield وفي هذه الرسالة يقول الأب جونز :

«... لقد أصبح اسم «الإسلام» يتردد كثيراً هذه الأيام ... ...
«... إن البعض يكتب عنه كـ «عدو» والبعض يحاول تصويره في صورة «مارس» إله الحرب .. وهناك أقلام قليلة كتب أصحابها بنزاهة وصدق ... وقد رأت لجنة الكنيسة المتحدة أن تدعوكم إلى «حوار» في محاولة للكشف عن الحقيقة ... وتوضيح موقف الإسلام من هذه القضايا التي تحظى باهتمام زائد من الخاصة والعامة .. » .

وكان الرد سريعاً .. لم أنتظر لحظة واحدة ... وحددت مع الأب جونز موعداً لإجراء هذا الحوار بعد يوم واحد من هذه المحادثة .
لم يكن حواراً .. بل كان «نزالاً» استخدمت فيه كل أنواع الأسلحة ...
وانتهى الحوار ـ أو النزال ـ بفوز الإسلام في هذه المعركة ..
وطار الخبر بسرعة البرق . فأقبل الناس على المسجد من كل ناحية وفج أساتذة وطلاب . باحثون وعلماء . رجال ونساء ... وصحفيون يمثلون كل الاتجاهات .

لقد تحول المسجد إلى خلية بحث . وتعددت اللقاءات فيه فلم يخل من حوار أو نقاش في أي وقت ...

كان اللقاء الأول في الكنيسة المتحدة بـ «استراثفيلد» .. كما قلت فتيان وفتيات في مقتبل العمر .. ورجال ونساء ممن تقدمت بهن السن وبعد أن قدمني الأب جونز ..

أخذت مكانه أمام «الميكروفون» ثم قلت :

في هذا العالم المتغير .. السريع الإيقاع والخطوات . لا يكاد يمر يوم أو أسبوع حتى نسمع بمؤتمر يعقد هنا أو هناك[1] ..
مؤتمرات تتعدد وتتنوع باختلاف الهدف من هذا المؤتمر أو ذاك . ثم ينتهي بها الأمر إلى قرارات وتوصيات تضاف إلى غيرها من ألوف القرارات والتوصيات . وأقصى ما تظفر به من عناية أن تطبع طباعة أنيقة ثم تحفظ بعد ذلك في كتاب .

ما قيمة البنايات الشاهقة المزودة بأحدث وسائل الترفيه والتسلية إذا كانت تسكنها قلوب محطمة . ؟

وما قيمة العلوم والمعرفة إذا كانت وسيلة للدمار والحرب والتعاسة .
وما قيمة نزول إنسان على سطح القمر إذا كان يجهل حقيقة أخيه الإنسان فوق هذه الأرض ؟

ومن هنا تأتي أهمية هذا الحوار . وأهمية المناقشات في هذا الحوار ..
إن البشر كما يقرر القرآن إخوة وأبناء لأب واحد .. وأم واحدة ..

«يا أيها الناس : اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها . وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء» ... (النساء ـ ١)

---

(١) لقد أعيدت كتابة هذا الحوار بعد أن توفرت المراجع التي لم تكن ميسرة في هذا الوقت . فقد كان اعتمادي على الذاكرة في أول الأمر .. أما حين يطبع ذلك في كتاب فلا بد من مراعاة الدقة في الكتابة والبحث .

«يا أيها الناس . إنا خلقناكم منّ ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» ـ (الحجرات ـ ١٣) .

والإنسان في كتابنا السماوي المقدس هو أكرم مخلوقات الله .. فآدم أبو البشر ـ في تراثنا الديني ـ خلق في صورته ـ أي في صورة الله ـ ونفخ فيه من روحه ـ أي من روح الله ـ واختير ـ دون الملائكة ـ ليكون خليفة عنه . أي خليفة عن الله ...

«إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال إني أعلم ما لا تعلمون» (البقرة ـ ٣٠)

ولأنه : أى الإنسان خليفة عن الله فى الأرض ، وكان أكرم مخلوقاته بين الخلق . فما نراه حولنا فى هذا الكون من عوالم . عالم النجوم والكواكب . وعالم الحيوان والنبات . وعالم الطير والجماد ... وكل ما عرف فوق سطح هذه الأرض من جبال وبحار وماخفى فى أعماقها من معادن وثروات ، كل هذه العوالم خلقت من أجل هذا الإنسان وسخرت بإرادة الله لتكون فى خدمة هذا الإنسان .

«وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ... إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون» .

«وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا

منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ـ ولعلكم تشكرون .

وألقي في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون »[1] .

* * *

ولأن البشر كلهم إخوة ، وكرامتهم عند الله واحدة . فقد محا الإسلام بكلمة واحدة كل أسباب التفرقة ، وأسقط كل المزاعم التي تميز إنساناً على إنسان بالجنس أو اللون أو الطبقة ...

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات – ١٣)

* * *

والقرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يعترف بما سبقه من الكتب السماوية ويفرض على المسلم الإيمان بها إيمانه بالقرآن نفسه .

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » (البقرة ـ ٢٨٥) .

فمن آمن بالقرآن ولم يؤمن بالإنجيل والتوراة ـ كما أنزلا من عند الله ـ فهو ليس مسلماً .

والقرآن يؤمن بجميع الأنبياء والرسل من لدن آدم إلى المسيح ومحمد عليهما السلام .

---

(١) سورة النحل : ١٢ ـ ١٥ .

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا . وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط . وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (البقرة ـ ١٣٦) .

فمن آمن بمحمد ولم يؤمن بأي نبي آخر ذكره القرآن فهو ليس مسلماً .

* * *

ومن حقائق القرآن التي تدل على شمول عقائده ، أنه يعتبر رسالة الأنبياء جميعاً واحدة وهى « الإسلام » . والاختلاف بين رسالة ورسالة إنما هو اختلاف اقتضته الطبيعة البشرية طبقاً لتطور الإنسان من مرحلة إلى مرحلة . فإذا كان الإنسان يولد طفلاً . ثم يموت شيخاً . وكان لكل مرحلة من مراحل عمره ما يناسبها من الغذاء والتربية . فكذلك كانت الإنسانية في مراحلها الأولى كما قرر ذلك علماء الاجتماع والتربية .

يقول القرآن :

« شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً . والذى أوحينا إليك . وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه » (الشورى ـ ١٣)

وفي هذا يقول النبي محمد (ص) :

«مثلي . ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة . فجعل الناس يطوفون به،، ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» .

من أجل ذلك يقرر القرآن بأن دين الله واحد منذ الأزل . فاذا قال القرآن : إن الدين عند الله الإسلام ، فذلك لأن الإسلام فى صورته الأخيرة التى جاء بها النبى محمد . صورة شاملة لكل الرسالات السابقة وعقيدة شاملة لكل الكتب السماوية السابقة ، ودين شامل لكل أنبياء الله السابقين ورسله .

يقول القرآن :

«ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء ، إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي . قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون» (البقرة ١٣٢ - ١٣٣) .

«وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين» (يونس ـ ٨٤) .

«فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله . واشهد بأنا مسلمون» (آل عمران ـ ٥٢) .

ولما كان من معاني الإسلام «الانقياد والخضوع لله» فإن القرآن يعتبر كل ما في هذه الحياة مسلماً . لأن كل ما في الحياة خاضع لقوانين الله ومشيئته في الخلق والحياة .

«وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً» (آل عمران ـ ٨٣) .

بل يعتبر القرآن عالم الحيوان والطير أمة من الأمم . لها حقوق يجب أن تلتزم وتعامل بأسلوب يراعى ويحترم ...

«وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم» (الأنعام ـ ٣٨) .

وفي هذا يقول نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم :

بينما رجل يمشي في الطريق اشتد عليه العطش . فوجد بئراً فنزل فيها وشرب ثم خرج ...

فرأى كلباً يلهث . يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : قد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي .

فنزل البئر . فملأ خفه ثم أمسكه بفيه (أي فمه) فسقى الكلب . فشكره الله . فغفر له .

قالوا ـ أي أصحاب النبي ـ يا رسول الله ..

وإن لنا في البهائم لأجرا ؟

فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر ..

وقال نبي الإسلام :

لا تتخذوا ظهور دوابكم منابر إنما سخرها الله لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس .

وحين رأى أحد أصحابه يحمل طائراً في يده ونظر أم هذا الطائر تحوم فوق رأسه . اعترض على هذا العمل وقال :

من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها ..

وقال : ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة ..

وفي ضوء هذه التعاليم يقرر الفقهاء المسلمون من أحكام الرحمة بالحيوان ما لا يخطر على بال أحد ...

فهم يقررون : أن نفقة الحيوان واجبة على مالكه . فان امتنع أجبر على بيعه أو الإنفاق عليه ...

بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فقالوا :

إذا لجأت قطة عمياء إلى بيت شخص وجبت نفقتها عليه لأنها لا تستطيع الذهاب إلى مكان آخر !

وقالوا أيضاً :

إن لكل حيوان طاقة خاصة فلا ينبغي أن يحمل حيوان أكثر من طاقته .. وحددوا لكل نوع من أنواع الدواب أقصى ما يمكن أن يتحمله ..

وأكثر من هذا : فإن أغنياء المسلمين كانوا يوقفون بعض أملاكهم لرعاية الحيوانات المسنة والمريضة . وإطعام الكلاب والقطط الضالة ..

وفي تاريخنا نقرأ قصة امام اسمه «أبو إسحاق الشيرازي» .. هذا الإمام كان يمشي في طريق مع بعض أصحابه . فتعرض لهم كلب كان يمشى فى الطريق . فحاول بعض أصحاب هذا الإمام زجر هذا الكلب وإرغامه على الفرار والهرب .

فصاح الإمام فيهم قائلاً :

اتركوا الكلب وشأنه .. أما علمتم أن الطريق مشترك بيننا وبينه .. !

ومتى حدث هذا ..

حدث هذا قبل أن تعرف أوربا .. وتكتشف أميركا ... وقبل أن يسمع أحد بقارة اسمها أستراليا ...

ومعذرة إذا قلت :

إن المجتمع الأوربى .. لا يخجل من تناقضه مع نفسه . فحين أطلق الروس أول سفينة فضائية تحمل كلبة اسمها «لايكا» .. فإن هذا المجتمع الأوربى ـ أو الغربي ـ ثار على وحشية الروس الذين أطلقوا هذه الكلبة دون توفير الأمن والحماية لحياتها في طبقات الجو العليا ... بينما هذا المجتمع الأوربى الأميركي يقف متفرجاً فرحاً لدى سماعه بأنباء المذابح الجماعية التي تدبر للمسلمين في قارتي آسيا وإفريقيا ... ؟

* * *

وبعد : فهذه هي عقيدة القرآن ونظرته الشاملة لكل ما في هذا الكون .

ولكن ما أكثر العقائد والفلسفات التي عرفها الإنسان منذ ظهر فوق هذه الأرض ... عقائد ونظريات بقيت مسطورة ـ حتى يومنا هذا ـ بين صفحات الكتب ، أو حبيسة في عقل الفيلسوف أو الكاتب . فإذا خرجت من عالم المثال والفكر إلى واقع الحياة والتنفيذ لم تزد الإنسانية بها إلا شقاء على شقاء وكانت وبالاً على صاحبها قبل أن تكون وبالاً على غيره من الأشقياء ..

فهل حدث هذا مع الإسلام حين طبق ؟

سأضرب لكم مثلاً واحداً على ذلك . وهو موقف الإسلام من تحريم الخمر ... يقول المفسرون :

عندما نزلت آية : «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون» (المائدة – ٩٠/ ٩١) .

يقول المفسرون : ما كاد الناس يسمعون هذه الآية حتى أراقوا ما ما بأيديهم من الخمر وهم يقولون: «انتهينا يا ربنا انتهينا» .

إن الإقلاع عن شرب الخمر بهذه الصورة أمر مثير للدهشة ، ولكن الأكثر من ذلك عجباً ودهشة أن يقع ذلك من قوم كانت الخمر تجري في دمائهم وقد أطلقوا عليها أسماء وصفات تختلف باختلاف ساعات ليلهم ونهارهم .

قارنوا بين هذا الموقف .. وبين ما حاولته حكومة الولايات المتحدة الأمريكية .

لقد حاولت الحكومة الأمريكية تحريم شرب الخمر . وسنت القوانين الرادعة لتأكيد هذا التحريم ومعاقبة من يخالف هذا الأمر .

لقد أنفقت مئات الملايين من الدولارات في الدعاية لهذا المشروع ، وبلغ عدد الصفحات والمنشورات والكتب التي ألفت ووزعت لبيان ما في الخمر من مفاسد وأضرار حوالي عشرة بلايين صفحة .. واستمرت الحملة قرابة أربعة عشر عاماً ... أعدم فيها ثلاثمائة شخص ..

وسجن فيها أكثر من نصف مليون ، وصودرت فيها أموال وأملاك الألوف من المواطنين ..

وبالرغم من كل هذه الخسائر والتضحيات . فقد زاد الشعب الأمريكى إصرارًا على الشرب .. ولم تزده هذه القوانين إلا ولعًا وإغراقًا فى احتساء الخمر مما أدى إلى إلغاء هذا القانون فى نهاية الأمر ..

لقد كان التفاخر باللقب والنسب ، والتعصب للقبيلة والأهل من السمات البارزة فى حياة العرب . ولكننا نسمع أن رجلاً من أشراف العرب هو أبو ذر الغفارى يضع وجهه على الأرض ثم يطلب من « بلال » العبد الحبشى أن يطأه بقدمه .. ولماذا .. ؟

لأن أبا ذر قال ذات مرة لبلال : يا ابن السوداء .. فلما سمع النبي بذلك قال :

طف الصاع ـ أي تجاوز الأمر حده .

ثم دعا أبا ذر وقال له : أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ـ أي لا تزال فيك بقية من الكفر ـ إنه ليس لابن البيضاء فضل على ابن السوداء إلا بالتقوى ..

إن الميزان القرآنى لا يفرق بين بشر وبشر ، إنه حين يقول : يا أيها الناس فإنما يعنى بهذا النداء كل إنسان مهما يكن لونه أو جنسه أو عقيدته . وجميع الآيات التى تقرر كرامة الإنسان تبدأ بهذا النداء الشامل الجامع ـ يا أيها الناس ـ تأكيداً لحق الإنسان . أى إنسان فى الكرامة وحرية الفكر والعقيدة .

وقد ظن بعض أقارب النبى أن لهم بحكم هذه القرابة حقًا

مكتسبة وامتيازات خاصة . فرفض النبي هذه التفرقة وصرفهم عنه بهذه الكلمة الفاصلة .

«لا يجيئني الناس بالأعمال وتجيئني بالأقوال» .

إن القرابة هنا ليست دماً ولحماً . العدالة والحق فوق كل شيء .. ليس هنا مجال للتفرقة تحت أي شعار من شعارات الجاهلية البائدة .. فالناس سواسية كأسنان المشط يستوي في هذا القريب الأقرب والبعيد الأبعد .

ألم يقل الله لنوح عليه السلام عن ولده «إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح» (هود ـ ٤٦) .

لقد اختار الابن طريقاً غير طريق أهل الحق فليس لأبيه أن يطلب له النجاة من عقاب أهل الباطل .

يقول القرآن :

«يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا . وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً» (النساء ـ ١٣٥) .

* * *

وأياً ما كان الأمر فسيبقى هذا اللقاء علامة مضيئة في طريق الحق والمعرفة ... معرفة أكثر تفهماً وعمقاً لما بين الإسلام والمسيحية من تضاد وتشابه . أو تقارب وتنافر .. .

إنه لقاء من أجل الحق كما بشر بذلك سيد هذا «المعبد» أو كما أكد ذلك الإسلام على لسان النبي محمد ..

وشكراً لكم .. وأهلاً وسهلاً بأسئلتكم ؟

* * *

ـ السيدة «جين» والآنسة «سوزان» :
قلتم إنكم تؤمنون بالتوراة والإنجيل . إن هذا لشيء رائع حقاً ...

* * *

* نعم نحن نؤمن بالتوراة والإنجيل ..
ولكن أية توراة وأي إنجيل ؟
ما أصعب الإجابة .. وأشد من كل ذلك صعوبة ما سوف تسمعونه رداً على هذه الأسئلة ..
هل التوراة . أو ما يسمى بالعهد القديم . هو الوحي المنزل على موسى نبي الله حقاً ؟

وبعبارة أكثر وضوحاً .. هل ما تقرءونه الآن .. فيما يسمى بالعهد القديم . هو «كلمة الله» الموحى بها إلى الأنبياء والرسل ... ؟
إنى أستسمحكم العذر عما تحمله إجابتى من وضوح وصراحة ولكنها جريمة أن نجامل أحداً بغير الحق .. وجريمة ضد العقل أن ننكر عقولنا فيما نحن بصدده من تقرير الحقيقة التى لايعتريها غموض ولاشك .
وبادئ ذى بدء .. اسمحوا لى أن أدع جانباً القرآن ، كتاب المسلمين المقدس .. إننى لن ألجأ إليه فى هذه المناقشة . لأنى أعلم سلفاً أنكم لاتعترفون بهذا القرآن ولا تعترفون بالنبى محمد الذى أنزل عليه هذا القرآن .
هنا دائرة المعارف البريطانية .. فاقرءوا ماكتب فيها إن شئتم . وقد

فوجئت أيضًا بكتاب العالم الفرنسي موريس بوكاى[1] مترجمًا إلى اللغة الإنجليزية . ورأيت كتبًا أخرى كثيرة متخصصة فى دراسة التوراة والإنجيل وما أعتراها من التحريف والتغيير فى مراحل سابقة متقدمة .

فماذا تقول دائرة المعارف البريطانية : ؟

إن البداية الحقيقية للعهد القديم تفتقر إلى السند التاريخي .

* فقد قيل : إنه في نهاية القرن الأول الميلادي حرقت نصوص العهد القديم وأن «عزرا» قد ألهمته السماء لإعادة صياغتها فأملى إلهامه على أربعة من الكتبة لمدة أربعين يوماً ليتجسد هذا الإلهام في أربعة وتسعين كتاباً منها أربعة وعشرون ، هي كل نصوص العهد القديم ..

أما السبعون الأخرى فكانت من صياغته هو ... !

* ويقولون ان كتب «عزرا» السبعين بذت العهد القديم حكمة وصياغة ودقه .. :

* هذه الأسطورة تحتاج إلى دليل لترقى إلى مرتبة الدليل .

* مع نهاية القرن الثالث عشر انتشرت الفكرة السائدة بأن العهد القديم انتهى بنهاية «عزرا» وكان على رأس المتشيعين لهذه الفكرة «الياس ليفيتا» ١٥٣٨ م و«جوهانز باكستورف» سنة ١٦٦٣ م[2] .

ويقولون :

* إن أول معرفة جادة بالعهد القديم كانت في الفترة الواقعة بين القرن السادس والقرن الثامن .

---

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة . ـ دار المعارف ـ القاهرة .

(٢) أنظر دائرة المعارف البريطانية ـ الجزء الثالث ص ٥٠١ . تحت كلمة BIBLE

* هذه الفترة الزمنية الطويلة كانت كفيلة بالإضافة والحذف والتفضيل والتغيير .

* وفي القرن التاسع بدأت كوكبة من الدارسين بإعادة صياغة العهد العهد القديم وكانت صياغتهم لغوية بحتة .. !

وإن كثرة الترجمات مع اختلاف المصادر جعلت من الصعب الاتفاق على نص موحد .

* لقد كانت هناك أصول كثيرة للعهد القديم قلما يتشابه اثنان منها مع بعضهما البعض . لذلك فإن الترجمات التي اعتمدت على أصول مختلفة لم تقل هي الأخرى اختلافاً من ناحية النص والترتيب الزمني [١] .

أما المؤلف والمفكر الفرنسي «موريس بوكاي» فيبدأ كلامه بهذه الأسئلة :

من مؤلف التوراة ؟

وفي أي عصر كتبت ؟ وعن أية لغة ترجمت ؟

لقد أجاب هذا العالم عن كل هذه الأسئلة بما يؤكد وجود تحريف وإضافات كتبها أناس من اليهود في عهود مختلفة .. وقد اختلطت هذه التحريفات والإضافات ببقايا «وحي» فقد أصالته وبريقه وسط هذا الركام من الإضافات الكاذبة ، والتحريفات المتعمدة ، والتناقضات الصارخة ..

في سفر «التكوين» كما يقول «موريس بوكاي» توجد أكثر هذه المتناقضات وضوحاً وصراحة .

---

(١) دائرة المعارف البريطانية الجزء الثالث صفحة ٥٠٨ .

ولنضرب لذلك مثلاً بقصة «الطوفان» وما فيها من تناقضات تحير العقل وتثير الحيرة والشك .

إن للطوفان ، حسب هذه النصوص ، مدتين مختلفتين : إذ تقول رواية أربعون يوماً فيضاناً ، على حين تقول رواية أخرى مائة وخمسون يوماً . ولا تحدد إحدى الروايات تاريخ وقوع هذا الحادث من حياة نوح ، ولكن رواية أخرى تحدده حين كان عمر نوح ٦٠٠ سنة . وتعطى نفس هذه الرواية إشارات عن موقعه الزمنى بالنسبة لآدم وبالنسبة لإبراهيم ، والتى تقول إن نوحاً قد ولد بعد ١٠٥٦ عاماً من آدم ، فإن الطوفان ــ حسب هذه الرواية ــ يكون وقع بعد ١٦٥٦ عاماً من خلق آدم وبالنسبة إلى إبراهيم فيحدد سفر التكوين الطوفان بـ ٢٩٢ سنة قبل ميلاد هذا الأب الأول .

ولكن ، كما يقول سفر التكوين ، يعم الطوفان كل الجنس البشري . وكل الكائنات الحية التي خلقها الله قد أعدمت على الأرض حسب هذه الرواية .

إن البشرية ، والأمر هكذا ، تكون قد أعادت تكوين نفسها ابتداء من أولاد نوح وزوجاتهم ، بحيث أنه ، عندما يولد إبراهيم بعد ذلك بثلاثة قرون تقريباً ، فإنه يجد الإنسانية قد أعادت تكوين نفسها في مجتمعات .

كيف يمكن لإعادة البناء هذه أن تتم في زمن قليل إلى هذا الحد . . ؟ إن هذه الملاحظة البسيطة تنزع عن النص أية معقولية .

أكثر من ذلك فالحقائق التاريخية تثبت استحالة اتفاق هذه الرواية مع المعارف الحديثة . والواقع أن عصر إبراهيم يحدد بالسنوات

١٨٠٠ – ١٨٥٠ ق . م تقريباً فإذا كان الطوفان قد حدث قبل ثلاثة قرون من إبراهيم ، كما يوحي بذلك سفر التكوين فإن الطوفان يقع في القرن ٢١ أو ٢٢ ق . م . وذلك هو العصر الذي كانت قد ظهرت من قبله في نقاط مختلفة من الأرض حضارات هائلة كثيرة .

على سبيل المثال فهذه الفترة ، بالنسبة لمصر ، هي التي تسبق الدولة الوسطى (٢١٠٠ ق . م) وهذا بالتقريب هو تاريخ الفترة الوسطى الأولى قبل الأسرة الحادية عشرة . وفي بابل أسرة أور الثالثة . ومن المعروف جيداً أنه لم يحدث انقطاع في هذه الحضارات وبالتالي لم يحدث إعدام يعم البشرية برمتها كما تقول التوراة .

وبالتالي فلا يمكن اعتبار أن روايات التوراة الثلاث تصف للإنسان أموراً تتفق مع الحقيقة .

وإذا أردنا أن نكون موضوعيين فلا بد أن نقول بأن هذا النصوص التي وصلت إلينا لا تعبر عن الحقيقة . وهل أنزل الله شيئاً غير الحقيقة . الواقع أنه من غير الممكن تصور فكرة إله يعلم الناس بالاستعانة بأوهام بل بأوهام متناقضة . وطبيعى أن يثير ذلك إفتراض وجود تحريف بواسطة البشر ـ إما في الأقوال المتوارثة التي انتقلت شفهياً من جيل لآخر أو في النصوص بعد تحديد هذه الأقوال المتوارثة .

وعندما نعرف أن مؤلفاً مثل سفر التكوين قد عدل على الأقل مرتين ، وهذا على مدى ثلاثة قرون فكيف ندهش حين نجد فيه أموراً غير معقولة أو روايات يستحيل أن تتفق مع واقع الأشياء[1] .

---

(١) أنظر كتاب « دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة . تأليف العالم الفرنسي الدكتور موريس بوكاي ص ٥٣ ـ ٥٤ ـ دار المعارف ـ القاهرة .

ولا يكتفي سفر التكوين بهذا القدر من المتناقضات بل يعود ثانية ليؤكد أن الله قد ندم على إغراق الأرض بهذا الطوفان ، ويعد نبيه نوحاً بعدم تكرار ذلك في مستقبل الأيام والزمان ؟

« وكلم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً : ... أقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض كل ذي جسد أيضاً بمياه الطوفان ، ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض » .

ـ وقال الله : هذه علامة الميثاق الذى أنا وضعته بينى وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التى معكم إلى أجيال الدهر وضعت قوسى فى السحاب فتكون علامة ميثاق بينى وبين الأرض ، فيكون متى أنشر سحاباً على الأرض وتظهر القوس فى السحاب .. فمتى كان القوس فى السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية فى كل جسد على الأرض ...[1] .

* * *

إن الطوفان القديم كان عقوبة لقوم نوح وحدهم ، وانه ليس غرقاً استوعب سكان القارات الخمس . فما ذنب هؤلاء المساكين ونوح رسالته محلية لا عالمية اللهم إلا إذا كان المعمور يومئذ من هذا الكوكب ديار نوح فقط ...

وأياً ما كان الأمر فإن وصف الله بالضيق لما ارتكب من إغراق الأرض ثم ندمه بألا يفعل ذلك أمر يليق بالعبد لا بالسيد .. بالمخلوق . لا بالخالق ...

---

(١) الاصحاح التاسع من سفر التكوين .

ثم ماذا يقال عن القصة التي تحكي مصارعة بين «الله» سبحانه . وبين أحد أنبيائه عليه صلاة الله وسلامه .

كانت هذه «المصارعة» كما جاء في سفر التكوين بين ... الله .. وبين «يعقوب» ... وقد دامت هذه المصارعة وقتاً طويلاً كاد يفوز فيها يعقوب لولا أن الطرف الآخر في المصارعة ـ وهو الله ـ لجأ إلى حيلة غير رياضية هزم بها يعقوب ...[1] .

ومع ذلك فإن يعقوب تشبث بالله وأبى أن يطلقه حتى نال منه لقب «إسرائيل» ..

ومنحه الله هذا «اللقب الفخري» ثم تركه ليصعد إلى العرش ويدبر أمر السماء والأرض ، بعد تلك المصارعة الرهيبة ...

وهذه هي القصة بأحرفها من سفر التكوين :

«.. فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه ، وقال : أطلقني .. فقال : لا أطلقك إن لم تباركني . فقال له : ما اسمك ؟ فقال : يعقوب ، فقال : لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل ..

وسأل يعقوب وقال : أخبرني باسمك فقال : لماذا تسأل عن اسمي ؟ وباركه هناك . فدعا يعقوب اسم المكان «فينيئل» قائلاً : لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي .. لذلك لا يأكل بنو إسرائيل «عرق النسا» الذي على حق الفخذ إلى هذا اليوم لأنه (الله) ضرب حق فخذ

---

(١) نقلاً عن كتاب «قذائف الحق» للداعية الإسلامي الشيخ محمد الغزالي .

يعقوب على عرق النساء .. »[1] .

* * *

ولنتجاوز هذه القصة إلى قصة أخرى عن يعقوب نفسه الأب المباشر لليهود والذي أخذ لقب إسرائيل بعد معركة حامية مع الله نفسه ظلت ليلاً طويلاً والذي سمى اليهود دولتهم القائمة باسمه .. ؟

إن هذا النبي عندنا نحن المسلمين جليل نبيل ، شارك أباه في الدعوة إلى الله ، ونبذ الوثنية ورفع علم التوحيد وإقامة الملة السمحة . لكنه عند كاتب التوراة شخص محتال سرق النبوة من أخية بطريقة عجيبة .

ولكن كيف . ولماذا .. ؟

لقد كان اليهود يخصون الابن البكر بالتركة كلها مادية كانت أو أدبية ، وعلى هذ كان « عيسو » الابن الأكبر لاسحاق هو الذى سيرث اللقب والمال ـ مثلما كان يحكم القانون الإنجليزى ـ ولكن أم يعقوب تفاهمت مع ولدها على غير هذا ـ وانتهزت أن « عيسو » خرج ليحضر الطعام إلى أبيه المكفوف ثم نفذت خطتها . وهذه هى التفاصيل كما حكاها سفر « التكوين » .. تفاصيل سرقة نبوة .. !

« .. وكانت رفقة[2] سامعة إذ تكلم اسحاق مع عيسو ابنه ، فذهب عيسو إلى البرية كي يصطاد صيداً ليأتي به . وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة إني قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلاً : ائتني بصيد

---

(١) نقلاً عن كتاب قذائف الحق ..

(٢) سفر التكوين الاصحاح : ٣٢ .

واصنع لي أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتي ، فالآن يا ابني اسمع لقولي فيما أنا آمرك به .

اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جديين جيدين من المعزى فأصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب ، فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته . فقال يعقوب لرفقة أمه : هو ذا عيسو أخي رجل أشعر ، وأنا رجل أملس ، ربما يجسني أبي فأكون في عينيه كمتهاون وأجلب على نفسي لعنة لا بركة .

فقالت له أمه : .. اسمع لقولي فقط ..

وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت وألبست يعقوب ابنها الأصغر ، وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جديي المعزى .. فدخل إلى أبيه وقال :

يا أبى : ها أنذا . فقال : من أنت يا بنى ؟ فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بكرك . قد فعلت كما كلمتنى . قم اجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك ..

فقال إسحق ليعقوب : تقدم لأجسك يا ابني .. أأنت هو ابني عيسو أم لا .. فجسه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو .. فباركه .. وقال : .. فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض .. لتستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل . كن سيداً لأخوتك ، وليسجد لك بنو أمك ، ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين »[1] .

---

(١) تكوين : ٢٧ .

وهكذا تمت سرقة رسالة سماوية ...[1] .

* * *

ثم أي قداسة تبقى لكتاب يحرض على الزنا . وينزل بالأنبياء وبنات الأنبياء إلى هذا الدرك .. من الفسق والخيانة .. ؟

هل شاهدتم فيلم الوصايا العشر .. ؟ The Ten Commandments

إني أذكركم باسم هذا الفيلم الذي أنتج منذ حوالي عشرين عاماً وأخرجه «سيسل دي ميل» الذائع الصيت .. في عالم السينما والمسرح ..

هل يعقل أن يكون نبي الله موسى قد عاش حياته كما صور في هذا الفيلم بصورة الفتى العاشق أو «الدون جوان» المتقلب .. ؟

ثم هل يعقل أن يدعو نبي من أنبياء الله بناته ـ لتحية ضيوف نزلوا عليه بالغناء والطرب والرقص ...

ولكن ما رأيناه في فيلم «الوصايا العشر» يهون مليون مرة أمام ما نقرأ في سفر «التكوين» من مخجلات تتضاءل أمامها كل موبقات العصر ...

هل يستقيم في نظر أي عاقل أن يزني رجل ببناته .. فإذا كان هذا الرجل نبياً فأي الكلمات .. في أي اللغات يمكن أن تعبر عن هذا السخط والتقزز ...

إن النبي من وجهة نظر أهل العقول إنسان منزه عن النقائص .. إنسان مختار من الله ... إنسان لا يتوقع من مثله خطأ .. فكيف بالخطيئة ... ؟

وهل يصدق الناس إنساناً يقول ما لا يفعل ؟ وفي أي شيء ... ؟ في إباحة الزنا وشرب الخمر ... ؟

---

(١) من كتاب قذائف الحق .

ومع من ... ؟

مع بناته ... بناته اللاتى يحملن ـ سفاحاً ـ من أبيهم النبي المرسل ..

هل يعقل ذلك ؟ لا أحد منا يصدق .. ولكن العهد القديم يذكر لنا قصصاً من هذا النوع القبيح المفجع ..

وكيف .. ؟

افتحوا الكتاب الذي بين أيديكم . واقرءوا معي السفر التاسع عشر من سفر التكوين ذاته ..

« .. وصعد لوط من صوغر وأقام في الجبل هو وابنتاه معه . إذ خاف أن يقيم في صوغر فأقام في المغارة هو وابنتاه . فقالت الكبرى للصغرى . إن أبانا قد شاخ وليس في الأرض رجل يدخل علينا . تعالى نسقي أبانا خمراً ونضاجعه ونقيم من أبينا نسلاً .

فسقت أباهما خمراً تلك الليلة وجاءت الكبرى فضاجعت أباها ولم يعلم بنيامها ولاقيامها .

فلما كان الغد قالت الكبرى للصغرى ها أنذا ضاجعت أبي فلنسقه خمراً الليلة أيضاً وتعالى أنت فضاجعيه لنقيم من أبينا نسلاً . فسقت أباها خمراً تلك الليلة أيضاً . وقامت الصغرى فضاجعته ولم يعلم بنيامها ولا قيامها . فحملت ابنتا لوط من أبيهما وولدت الكبرى أبناً وسمته « موآب » وهو أبو الموآبيين إلى اليوم . والصغرى أيضاً ولدت ابناً وسمته « بنعمى » وهو أبو بنى عمون إلى اليوم[1] .

---

(١) سفر التكوين ـ الإصحاح التاسع عشر .

هل يعقل هذا ؟ هل تستسيغ عقولكم ذلك من رجل عادي يعيش هنا فى كنجز كروس[1] Kings Cross .. وهل سمعتم بفتاة تراود أباها عن نفسه فإذا رفض سقته خمراً لتنام معه ؟ ..

أقول هل يحدث هذا في زماننا نحن .. ؟ وفي مثل هذا المجتمع الذي لا يحرم الجنس . ويعتبره ضرورة من ضرورات النفس ؟

* * *

أما بالنسبة للإنجيل . أو العهد الجديد فقد جرى له ماجرى لما قبله : نفس الشيء ونفس القصة .

وكما قررت سلفاً فإنى لن أرجع إلى القرآن لأنقل عنه قولاً أو رأياً .. سأكتفى بأقوال بعض علماء اللاهوت فى الغرب المسيحى لا الشرق الإسلامى . ولا بأس من الاستشهاد بأقوال عالم فرنسى متخصص .. إنه ليس موريس بوكاى هذه المرة .. ذلك لأن موريس بوكاى قد غير عقيدته واختار الإسلام بعد دراسة .. ؟

وإنما أقصد « شارل جينير » أستاذ المسيحية . ورئيس قسم تاريخ الأديان في جامعة باريس . وذلك في مؤلفه عن « المسيحية » : نشأتها وتطورها .

* *

وقد ظهر في الآونة الأخيرة كتاب من أهم الكتب التي تعرضت للمسيحية وكتبها المقدسة وقد كتب بأقلام مجموعة من علماء اللاهوت في بلاد الغرب . وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة ، بعد ترجمته إلى

---

(١) حى البغاء فى مدينة سيدنى .

اللغة العربية ، وعلق عليه أحد أساتذة جامعة الأزهر الإسلامية العريقة[1] » .

وأهمية هذا الكتاب ترجع إلى كونه كما جاء في عنوانه (خلاصة أبحاث علماء المسيحية في الغرب) وأهم هذه الأبحاث التي اعتمد عليها جاءت في الكتب الآتية :

كتاب « **الأناجيل . أصلها وتطورها** » للدكتور « فريدريك كلفتن جرانت » أستاذ الدراسات اللاهوتية في الكتاب المقدس بمعهد اللاهوت الاتحادي بنيويورك .

وكتاب « **كتابات مقدسة** » لمؤلفه الأستاذ « جنتر لانسز كوفسكي » المتخصص في تاريخ العقائد بجامعة هيدلبرج الألمانية .

وكتاب « **تفسير انجيل مرقس** » للأستاذ « دنيس اريك لينهام » أستاذ اللاهوت بجامعة لندن ، ورئيس تحرير سلسلة بليكان لتفسير الإنجيل .

وكتاب « **تفسير انجيل متى** » لمؤلفه « جون فنتون » ، عميد كلية اللاهوت بليتشفيد بانجلترا .

وكتاب « **تفسير انجيل لوقا** » لمؤلفه الدكتور « جورج بردفورد

(١) اسم الكتاب « المسيح فى مصادر العقائد المسيحية ـ خلاصة أبحاث علماء المسيحية فى الغرب ـ وقد قام بنقله إلى اللغة العربية : المهندس أحمد عبد الوهاب وقامت بنشره وطبعه مكتبة وهبة . وسنكتفى ـ فى عرض ماجاء فى هذا الكتاب ـ ببعض ماكتبه الدكتور يحي هاشم الأستاذ بجامعة الأزهر من تلخيص واف دقيق لأهم فصوله والذى تفضل مشكوراً بنشره فى « مجلة الأزهر » ـ الجزء الرابع ـ السنة الحادية والخمسون ـ جمادى الأولى سنة ١٣٩٩هـ ص : ١٠٥٠ ـ ١٠٥٩ .

كيرد » . الذي عمل أستاذاً لدراسات العهد الجديد بجامعة مكجيل بكندا ، ثم عميداً لكلية اللاهوت المتحدة ثم أستاذاً بجامعة أكسفورد ، ثم رئيساً للجمعية الكندية لدراسة الكتاب المقدس .

وكتاب **«حسب الكتب»** لمؤلفه الدكتور «تشارلز هارولد دود» الذي عمل أستاذاً لتفسير الكتاب المقدس بجامعة مانشستر ، ومديراً عاماً للجنة الترجمة الحديثة للكتاب المقدس ، ويمثل هذا الكتاب ، مجموعة محاضرات ألقاها في كلية اللاهوت بجامعة برنستون .

وكتاب **«أمثال الملكوت»** لمؤلفه المذكور سابقاً ويمثل الكتاب مجموعة محاضرات ألقاها في مدرسة اللاهوت بجامعة ييل .

وكتاب **«تاريخ العقيدة»** لمؤلفه الدكتور «أدولف هونك» أستاذ تاريخ الكنيسة بجامعة برلين ، ويعتبر واحداً من أكبر العلماء في التاريخ الكنسي ـ كما يقول المؤلف ـ وله أبحاث ومؤلفات عديدة من أهمها هذا الكتاب الذي يقع في سبعة أجزاء وقد ظهرت طبعته الثالثة الألمانية عام ١٨٩٣ م .

وكتاب **«اعتراضات على العقيدة المسيحية»** لمؤلفيه :

أساتذة كلية اللاهوت بجامعة كمبردج : الأساتذة «ماكينون ، وفيدلر ، وويليامز وبيزنت . يقول هذا الكتاب : وقد نشر لأول مرة في أبريل عام ١٩٦٣ م وتلقفته الأيدي حين ذاك ، فصدرت منه ثلاث طبعات في نفس الشهر : يقول المؤلفون في المقدمة :

« إن هذا عصر أصبحت فيه أساسيات العقيدة المسيحية موضع ارتياب وإن الدعاوى التى تقوم ضد المسيحية لم يعد من الممكن مواجهتها بتكرار الحجج القديمة أو تلك التبريرات الواهية » ...

ويبدأ الكتاب الذي بين أيدينا بالكلام عن مصادر العقائد المسيحية كما جاءت في العهد الجديد ، وينصب البحث هنا على التحقق من « قانونيتها » ويخرج القارئ من هذه الدراسة بخلاصة مؤداها :

أنه فيما يتعلق بالزمان والمكان والكيفية التي اكتسبت بها الأناجيل الأربعة الصبغة القانونية ـ أي صارت مقبولة من الكنيسة ـ ومن ثم اعتبرت مقدسة ، ووفقاً لما جاء في دائرة المعارف البريطانية الجزء ١٧ ص ٥١٤ لعام ١٩٦٠ لا يملك العلماء إلا أن يقولوا : « ليس لدينا أي معرفة محددة بالكيفية التي تشكلت بموجبها قانونية الأناجيل الأربعة ولا بالمكان الذي تقرر فيه ذلك ـ ومما يجب ملاحظته أن كليمنت الرومي ـ عام ٩٧ م وبوليكارب عام ١١٢ م ـ قد استشهد كل منهما بأقوال للمسيح في صيغ مستقلة في الأناجيل التي صارت قانونية فيما بعد ..

وأما فيما يتعلق بقانونية العهد الجديد ككل فمن الملاحظ أن عملية بنائه وتقرير شرعية كتبه قد استغرقت حوالي ٣٥٠ عاماً ـ وإلى بداية القرن الرابع « كان يوجد كثير من البلبلة ـ ويصف « ايزبيوس » هذا الوضع فيقسم الكتب إلى ثلاث طبقات :

كتب قبلت بوجه عام ، وكتب لا تزال موضع جدل لكن اعترف بها على نطاق واسع وكتب مرفوضة .

« أي الكتابات المسيحية تعتبر مقدسة وتجمع معاً لتكون في العهد الجديد ؟ إلى الآن ـ وبعد ان اقترب الألف الثاني لميلاد المسيح ـ لم يمكن الوصول إلى السؤال الأهم . بل والأخطر ألا وهو :

أي الأقوال نطق بها المسيح في انجيله وتحدث بها التلاميذ في

رسائلهم ؟ لقد ظهرت الأناجيل بنصوص مختلفة وكلما مرت عشرات من السنين ظهرت نفس الأناجيل بنصوص مخالفة لما عرفت به من قبل وبالمثل كان الحال مع رسائل التلاميذ .. ان مشكلة « النص » تعتبر بحق مشكلة المشاكل التي تشغل بال العلماء اليوم ، والتي استحدثت بسببها دراسات وعلوم تهدف أول ما تهدف إلى معرفة حقيقة النص الأصلى ، فحين يمكن تحقيق ذلك تتحدد كثير من المواقف » .

وتقول دائرة المعارف البريطانية :

« إن النسخ الأصلية لكتب العهد الجديد ـ وهي أغريقية ـ فنيت منذ مدة طويلة وفيما عدا بعض بقايا من صعيد مصر فإن كل النسخ التي استخدمها المسيحيون في الفترة التي سبقت مجمع نيقية قد غشيها نفس المصير . وما يجب ذكره أنه حتى اختراع الطباعة لم يكن قد تم الوصول إلى اتفاق كامل في أي من نصوص العهد الجديد » .

وتتحدث الدائرة ـ ص ٥١٩ ـ ٥٢١ ج ٣ عن الأناجيل فتقول :

« إن التغييرات قد حدثت فيها عن قصد . مثل إضافة أو إدخال فقرات بأكملها وبالتأكيد فإن بعضاً منها قد استمد من مصدر خارجى » .

ويقول فريدريك جرانت . فى كتابه الذى ذكرناه ص ٣٢ :

إن نصوص جميع المخطوطات الأصلية للعهد الجديد تختلف اختلافاً كبيراً ولا يمكننا الاعتقاد بأن أياً منها قد نجا من الخطأ ، ومهما كان الناسخ حي الضمير فانه ارتكب أخطاء وهذه الأخطاء بقيت في كل النسخ التي نقلت عن نسخته الأصلية . ان أغلب النسخ الموجودة من جميع الأحجام قد تعرضت لتغييرات أخرى على أيدي المصححين

الذين لم يكن عملهم دائماً إعادة القراءة الصحيحة ..

* * *

أما عن إنجيل مرقس بالذات فإن مرقس لم يكن قد سمع عيسى عليه السلام ولا كان تابعاً شخصياً له لكنه في مرحلة متأخرة كما يقول ـ باباس المسيحي المتوفى ١٣٥ م قد تبع بطرس ..

ويقول لينهام في كتابه الذي ذكرناه ص ٣٩ :

« لم يوجد أحد بهذا الاسم عرف أنه كان على صلة وثيقة وعلاقة خاصة بيسوع أو كانت له شهرة خاصة في الكنيسة الأولى .. » .

* * *

وأما عن انجيل متى :

فيوضح « جون فنتون » في كتاب تفسير انجيل متى ص ١٣٦ كيف أن متى كاتب الإنجيل لم يكن هو متى المذكور فيه على أنه تلميذ عيسى عليه السلام ويقرر ان ربط متى (لشخصيته كمؤلف بهذا التلميذ إنما هي محض خيال) ويقول (إنه من المحتمل ان مؤلف هذا الإنجيل نسب عمله إلى مؤسس الكنيسة التي كتب من أجلها هذا الإنجيل أو معلمها الذي كان اسمه متى ..) ..

أما بالنسبة لتاريخ كتابة هذا الانجيل فيمكن القول ـ كما يقول جون فنتون ص ١١ انه (كتب حوالي الفترة من ٨٥ – ١٠٥ م) .

والمشاكل الرئيسية لهذا الإنجيل تشتمل على خطأ الاستشهاد بتنبؤات العهد القديم ، وتوقع نهاية العالم سريعاً وما جاء فى خاتمته من ذكر التعميد باسم الآب والابن والروح القدس ، إذ أن هذه الصيغة كما يقول الدكتور

أدولف هرنك فى كتابه تاريخ العقيدة ص ٧٩ ك ١ .
ص ٧٩ ج ١ .
(غريب ذكرها على لسان المسيح ، ولم يكن لها نفوذ في عصر الرسل) .

* * *

وأما عن انجيل لوقا ، فإن لوقا : يعترف بأنه لم ير المسيح ولم يكن من تلاميذه . ويرجح العلماء كما يقول الدكتور فريدريك كلفتن جرانت في كتابه ص ١٢١ ــ ١٢٨ أن يكون لوقا قد أصدر انجيله حوالي ٨٠ أو ٨٥ م وبعد ذلك بحوالي عشر سنوات ذيل كتابه برسالة ثانية هي (أعمال الرسل) ونشره حوالي ٩٥ م .

هذا وان كان بعض العلماء الألمان أو الأمريكيين يرجحون القول بأن مؤلف كل من الإنجيل وأعمال الرسل شخصان مختلفان .

* * *

وأما عن انجيل يوحنا : يقول الأستاذ جون مارش في مقدمته لتفسير انجيل يوحنا ص ٢٠ :

« من كان هذا اليوحنا الذى قيل إنه المؤلف ؟ أين عاش ؟ أى المصادر كان يعتمد عليها ؟ متى كتب مصنفه ؟ حول كل هذه الأسئلة وحول كثير غيرها توجد « أحكام متباينة » . ثم يقول ص ٨١ : « من المحتمل أنه خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن الأول الميلادى قام شخص يدعى يوحنا من الممكن أن يكون يوحنا مرقس خلافاً لما هو شائع من أنه يوحنا بن زبدى أحد التلاميذ الاثنى عشر ــ وقد تجمعت لديه معلومات وفيرة عن يسوع . ومن المحتمل أنه كان على دراية بواحد أو أكثر من الأناجيل المتشابهة متى

ومرقس ولوقا ـ فقام عندئذ بتسجيل شكل جديد لقصة يسوع » .

وعلي العموم :

فلقد كتبت الأناجيل الأربعة القانونية على مدى فترة زمنية تقدر بأكثر من ٦٠ عاماً مابين عام ٦٨م وعام ١٢٥م ـ والأخطر من هذا أن أقدمها لم يكتب فى حياة المسيح ولا عقب رفعه مباشرة أو حتى بعد ذلك ببضع سنين ـ لكنه كتب بعد ٣٥ سنة مضت منذ رفع المسيح ، لهذا جد العلماء فى البحث عن الأسباب التى أدت إلى تأخير كتابة هذه الأناجيل وذكروا أسباباً من بينها أن الغالبية العظمى من المسيحيين الأوائل لم يكونوا متعلمين ، وأن العادة كانت جارية بنقل التعاليم الدينية شفاهاً (وثمة عامل آخر .. ألا وهو تفشى فكرة المجىء الثانى للمسيح ..) على وجه السرعة بحيث يشاهد الجيل الأول هذا المجئ ، هذا بالإضافة إلى الاضطراب والاضطهاد الذى اتسمت به الكنيسة فى عهدها الأول ..

فلما أوشك الجيل الأول الذي عاصر المسيح على الانقراض وتباعد الأمل في تحقيق المجيء الثاني للمسيح ظهرت الحاجة ماسة إلى تدوين الذكريات وكان هذا العمل من نصيب الجيل الثاني في المسيحية وهكذا بدأت كتابة الأناجيل بعد عشرات السنين من رحيل صاحب الدعوة .

ثم يفيض المؤلف في ذكر المشاكل الكثيرة التي تحول بين هذه الأناجيل الأربعة وبين الاعتقاد بصحتها أو بكونها وحياً إلى كاتبيها .. ويصنف هذه المشاكل إلى أربعة أبواب رئيسية تتناول :

التناقضات والاختلافات القائمة بين هذه الأناجيل ، ووقوعها في خطأ الاستشهاد بالعهد القديم ، ووقوعها في خطأ تقرير صلب المسيح ، ووقوعها في خطأ تقرير قيامته .

أما عن التناقضات فيذكر الاختلاف بين متى ولوقا في نسب المسيح ، ويعقب على ذلك بقوله (إنه لا يمكن الأخذ برواية أي من متى ولوقا عن نسب المسيح إذ لو اعتبرنا أحدهما صحيحاً لكان الآخر مخطئاً ولا شك) .

ويذكر الاختلاف بين متى ومرقص من جانب وبين لوقا ويوحنا من جانب آخر في أسماء التلاميذ ، ويعقب على ذلك بقول الدكتور جون برد فورد كيرد فى كتابه تفسير انجيل ، لوقا ص ١٠١ ، (عندما كتب الانجيل لم يكن هناك حتى مجرد التحقق الكامل من شخصية التلاميذ) .

ويذكر من هذه الاختلافات أيضاً الاختلاف في سرد الروايات المتعلقة بكثير من الوقائع ويذكر بعض الروايات المتنافرة في الانجيل الواحد وعلى سبيل المثال ما جاء في انجيل متى من قول المسيح لبطرس :

«طوبى لك يا سمعان بن يونا أعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماوات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماوات» متى ١٦ : ١٧ - ١٩ .

ثم جاء في هذا الانجيل نفسه بعد هذا القول مباشرة من أن المسيح (ابتدأ يظهر لتلاميذه أنه ينبغي أن يذهب إلى أورشليم ويسأل كثيرًا من الشيوخ ورؤساء الكهنة ، فأخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره قائلاً : حاشاك يا رب ولا يكون لك هذا ـ فالتفت وقال لبطرس : إذهب عني يا شيطان : أنت معثرة لي ولأنك لا تهتم بما لله بل للناس) متى ١٦ : ٢١ ـ ٢٣ ومرقس ٨ : ٣١ ـ ٣٣ .

ومن هذا التناقض الشديد أيضاً ما جاء في لوقا ومتى من قول المسيح (كل من أنكرني قدام الناس ينكر قدام ملائكة الله) لوقا ١٢ : ٨ - ٩

ومتى ١٠ : ٣٢ – ٣٣ وفي ختام الدعوة جلس المسيح بين تلاميذه الاثني عشر وفيهم بطرس وقال لهم : (كلكم تشكون في هذه الليلة ..) فأجاب بطرس وقال له : (وان شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبداً ..) .

قال له يسوع : (الحق أقول لك إنك فى هذه الليلة قبل أن يصيح ديك تنكرني ثلاث مرات . قال له بطرس : ولو اضطررت أن أموت معك لا أنكرك . هكذا قال أيضاً جميع التلاميذ) متى ٢٦ : ٣١ – ٣٥ مرقص ١٤ : ٢٧ ـ ٣١ لوقا ٣٢ : ٣٤ .

وتقول الاناجيل إن نبوءة المسيح في بطرس قد تحققت ، وأنكر بطرس المسيح ثلاث مرات أمام الذين قبضوا عليه (متى ٢٦ : ٥٦ – ٧٤ مرقص ١٤ : ٦٦ – ٧١ لوقا ٢٢ : ٥٤ – ٦٠) .

ويقول المؤلف : « بهذا وقع بطرس في المحظور وألقى بنفسه في دائرة الهلاك إذ لا بد وأن ينكره المسيح أمام الله تحقيقاً لما سبق أن نطق به ...) .

ومع ذلك يأتي أنه بعد قيامة المسيح وظهوره لتلاميذه عين بطرس خليفة له فيهم ورئيساً عليهم ـ (يوحنا ٢١ : ١٥ ـ ١٧) .

وهكذا تأتى عشرات الأمثلة على هذا التناقض الصارخ من المقابلة بين النصوص وتأتى أمثلة أخرى على نبوءات نطق بها المسيح ولم تتحقق ، فمن ذلك ماجاء فى متى ١٩ : ٢٧ ـ ٢٩ من أنه قال (متى جلس ابن الإنسان على كرسى مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثنى عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الأثنى عشر . ولقد كان يهوذا الاسخريوطى الخائن الذى أصبح يعرف « بابن الهلاك » من بين هؤلاء الاثنى عشر وبهذا يستحيل تحقيق هذه النبوءة .

ومن أجل هذا نجد لوقا يحذف هذا التحديد بالاثنى عشر فى النبوءة عند ذكره لها .

ويقول جون فنتون (لعل ذلك يرجع إلى أنه كان يفكر في يهوذا الاسخريوطي) .

ولقد تنبأ المسيح كما نسب إليه بأنه يدفن في الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال (متى ١٢ : ٣٨ – ٤٠ ومرقص ٨ : ٣١ ، ٩ : ٣١ ، ١٠ ٣٤ ويوحنا ٢ : ١٩) وبحسب الأناجيل أيضاً ، وبعملية حسابية بسيطة نجد أن الأيام التي قضاها الميت في بطن الأرض ـ في القبر ـ كانت يوماً واحداً هو يوم السبت ، وعدد الليالي اثنتان : ليلة السبت وجزء من ليلة الأحد على أحسن الفروض .

يقول المؤلف (وبذلك استحال تحقيق هذه النبوءة) .

أما عن روايات الأناجيل عن أحداث الصلب فقد اختلفت فيها اختلافاً بيناً شديداً وعلى سبيل المثال :

فقد اختلفت في مقدمته هذه الأحداث ـ مسح المسيح بالطيب ـ اختلفت في توقيتها واختلفت في مكانها ، واختلفت في شخصية المرأة التي قامت بالمسح واختلفت فيما فعلته واختلفت في رد الفعل الذي حدث عند المشاهدين .

كذلك اختلفت الأناجيل فى ذكر الأحداث المتعلقة بالقبض على المسيح . ويستخلص المؤلف من روايات الأناجيل فى هذه المسألة نتائج هامة يبنيها على ما جاء فيها من أن المسيح قال لتلاميذه «كلكم تشكون فى هذه الليلة» وما جاء فى الأناجيل أيضاً من أن التلاميذ لم يشكوا فيه فى تلك الليلة .. والنتائج المترتبة على ذلك هى :

إما ان نبوءة المسيح بشكهم لم تتحقق . ويترتب على هذه النتيجة نتيجة أخرى : هي أنهم لم يشكوا لوثوقهم بنجاته مما يضر بصحة نبوءات المسيح وصحة ما ذكر عن صلبه معاً ، وإما انها تحققت أي أنهم شكوا في نجاته بالفعل وهذا ـ يعني ارتدادهم ، كما يعني نجاته أيضاً .

وهكذا تجري الروايات المتناقضة في ما يتعلق بقصة إنكار بطرس ، والمحاكمات التي جرت للمسيح أمام مجمع الكهنة ، وهيرودت ، وبيلاطس ، وحامل الصليب ، ـ واللصين اللذين صلبا بجواره ووقت الصلب ، وصلاة المصلوب وصراخه على الصليب وموت المصلوب . وشهود الصلب ، وعملية الدفن ، ونهاية يهوذا ، وهلاك بيلاطس وتنبؤات المسيح بنجاته من القتل ، وتنبؤات المزامير ـ التي اعتمدت عليها الأناجيل بنجاته أيضاً ، واختلاف المسيحيين الأوائل في صلب المسيح واختلاف الأناجيل فيما يتعلق برواية أحداث قيامة المسيح ، وظهوره لتلاميذه ، وشك التلاميذ في روايات القيامة والظهور ، وصعوده للسماء . أو نزوله أولاً إلى الجحيم كما جاء في قانون إيمان الرسل الذي تذكر بعض المصادر المسيحية أن تلاميذ المسيح وضعوه بعد رحيله .

* * *

هل بقي شيء نقوله ؟

نعم ... إن هناك أشياء كثيرة لم تقل بعد وسنكتفي منها بإشارات سريعة تفتح أمام عقولنا آفاق البحث عن الحقيقة والحق ..

لقد اختلفت الأناجيل أيضاً حول قصة شجرة التين التى لعنها المسيح

حيث لم يجد عليها ثمراً فجفت ... ولكن متى جفت الشجرة الملعونة هذه ؟
هل تم الجفاف فى يوم اللعن ؟ أم تأخر هذا الجفاف إلى الغد ؟
روايتان متناقضتان لكل من « متى » ومرقص ..
كما اختلفت الأناجيل حول قصة المجنون والأعمى والحمار ..
فانجيل لوقا وانجيل مرقص يقرران بأن « المجنون » كان رجلاً واحداً
فقط .. ولكن . متى يضاعف عدد المجانين فى روايته ويقول : « استقبله
مجنونان خارجين من القبور .. » .

وبهذا زاد « متى » عدد المجانين واحداً .. !
وقد تكررت الصورة نفسها بالنسبة « للأعمى » ...
فبينما يقرر مرقص ولوقا بأن الأعمى كان رجلاً واحداً . إذا بـ « متى »
يقول فى هذا :
« وفيما هم خارجون من أريحا إذا أعميان جالسان على الطريق ... »
لقد زاد متى في العدد أيضاً فبدل أن كان هناك أعمى واحد أصبح
هناك أعميان .. ! وبدلاً من حمار واحد تقرر إحدى الروايات
الإنجيلية أنه كان هناك حماران ... !
ومن أكثر الأشياء إثارة ما تنبأت به الأناجيل من وقائع وأحداث
لم يتحقق منها شيء ...
وعلى سبيل المثال لقد تنبأت الأناجيل بنهاية العالم في القرن الأول
للميلاد .. أي منذ ١٩٠٠ عاماً على الأقل .
« ... فإني الحق أقول لكم .. لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتي
ابن الإنسان ... » –– متى الاصحاح العاشر .
أي أن عودة المسيح ثانية إلى الأرض تحدث قبل أن يكمل تلاميذه

التبشير في مدن إسرائيل . وقبل أن يموت بعض معاصريه الذين شاهدوه حياً .

لأن « ... من القيام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته .. » ـ متى ـ الإصحاح السادس عشر .

وإلى الآن .. لم ينته العالم .. ولم يأت السيد المسيح ؟!

* * *

هل تريدون مزيداً من الأدلة ... ؟

إليكم هذا النبأ من الولايات المتحدة الأمريكية ..

« تقوم مؤسسة ريدرز دايجست Readers Digest بإخراج طبعة جديدة من الكتاب المقدس تختصر منها خمسين في المائة من العهد الجديد وخمسة وعشرين في المائة من العهد القديم ... » !

ومن أغرب الأخبار التي أذيعت حول هذه الطبعة المقترحة أن النساء في الولايات المتحدة يعترضن على الصلاة المسيحية التي تقول : « أبانا الذي في السموات .. » إذ يرون في هذا النص تفرقة بين المرأة والرجل .. فلماذا لا تبدأ الصلاة مثلاً بيا .. « أمنا » التي في السموات أيضاً ... ؟!

وقد اتفق القائمون على أمر هذه الطبعة أن تغير كلمة « أبانا » بكلمة « الخالق .. » حتى لا تثور المرأة ... ؟

* * *

والآن .. أعود إلى سؤال السيدة « جين » والآنسة « سوزان » الذي وجه في بداية الحوار فأقول :

نعم .. نحن نؤمن بالتوراة والإنجيل .. كما نؤمن بالقرآن ... ولكن .. أين هي كلمة الله في هذا الانجيل . وهذه التوراة ... ؟

أين كلمة الله الحقة فيما يسمى بـ « "The BIBLE"
أو «الكتاب المقدس» الذي يدين به يهود ونصارى هذا العصر ؟
ألا نكون محقين وصادقين حين نردد مع الدكتور «ويليام جراهام» ـ عميد معهد الدراسات اللاهوتية ـ جامعة شيكاغو ـ قولته المشهورة :
إنه كلام بشر وليس كلام الله ... It is human yet Disine

أفيلام المسلمون ـ بل وغير المسلمين من المنصفين إن هم آمنوا وصدقوا كل ما قال به القرآن عن التحريف الذي طرأ على العهدين الجديد والقديم ؟

« .. .. .. لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب . ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون[1] » .

«فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم . ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً .. فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون[2] » .

---

(١) آل عمران : ٧٨ .
(٢) سورة البقرة الآية : ٧٩ .

الحلقة الثانية من الحوار

* وماذا تقول عن القرآن ؟
* وهل احتفظ بالوحى الإلهى كما أنزل ؟
أم طرأ عليه التحريف بمرور الزمن ؟
* وما قصة بحيرا الراهب .. ؟ لقد
قيل إنه أستاذ محمد . وإنه المعلم
الروحى لنبى العرب .. ؟
* نموذج من الفكر الاستشراقى الملفق ..
* التناقض المزعوم بين الذين يعلمون والذين
لا يعلمون ...
* كارليل يتحدث عن النبى ...

انتهت الجلسة الأولى من المناقشات ... وانتقل المشتركون في الحوار إلى غرفة الطعام لتناول الشاي .. ؟ ولكن أي «شاي» ؟

لقد استمر الحوار الساخن الذى لم تخفف من حدته عبارات المجاملة المغلفة بالتحفز ... كانت الأسئلة في قاعة المحاضرات منظمة ومحكومة بتقاليد الحوار المعروفة .. ولكن .. هنا بين أقداح الشاي .. وفي غرفة الطعام تغير كل شيء .

لقد سيطرت روح القبيلة .. ووقف كل إنسان شاهراً سيفه .

وماذا تقول عن القرآن ؟ ألم يطرأ عليه ما طرأ على الإنجيل والتوراة ... ؟ ومن كتبه ؟

أليس القرآن من تأليف محمد ؟

أم علمه ذلك راهب ؟

لقد قيل لنا إنه أستاذ محمد ؟ وأنه المعلم الروحي لنبي العرب ؟

وهل سلم القرآن حقاً من التناقض ؟

* * *

لقد تحولت قاعة الطعام إلى «ساحة حرب» .. حرب استخدمت

فيها كل الأسلحة المخزونة في أوكار الاستشراق ... وحشد لها التبشير جيوشه المدججة بأحدث أساليب الكذب والنفاق ...

وخرجت من بين شفتي ضحكة سمعها البعض .. فقد كنت أتوقع ـ سلفاً ـ هذا الهجوم .. وأعرف من تجاربي السابقة ماذا سيقولون ..

إنها قصة الشرق مع الغرب ، أو الحمل مع الذئب ...

قلت للآنسة ماري الطالبة بكلية العلوم ـ جامعة سيدني : ماذا قرأت عن الإسلام وماذا تعرفين عنه .. ؟

إن هذه الورقة التى تحملينها بين يديك الآن مليئة بالافتراءات والأكاذيب .

.. مثلاً .. يقولون إن المسلمين يؤمنون بالشيطان .. إن اصغر طفل من المسلمين يستعيذ بالله .. بمجرد سماع اسمه ...

وماذا أيضًا : إن هذه الورقة تصف المسلمين «بالمحمديين» ... إنها خرافة ثانية .. إننا مسلمون لا محمديون .

... إن محمداً نبي من الله ورسول ... فليس إلهاً ولا ابن إله .. بل هو عبد «لله» كما قرر ذلك عن نفسه ..

لقد اختلطت الأمور فى ذهن كاتب هذه الورقة . فهو لا يريد أن يبرئ المسلمين من شبهة الوثنية التى تلوثت بها عقائد كثيرة ... وإذا جاز هذا بالنسبة للمسيحيين فلأنهم يرون فى المسيح صورة « الإله » الذى تجسد بشراً يحمل عنهم الخطيئة ...

أما عندنا نحن المسلمين . فإن محمداً بشر . والمسيح بشر وكل الأنبياء من البشر ..

وإذا جاز أن يكون للمسيح خصوصية يتميز بها على غيره من ناحية المولد .. فقد كان أولى بهذه الخصوصية آدم . الذي ولد من غير والدة ولا والد ...

* * *

ودقت ساعة الكنيسة .. فعاد الجميع إلى القاعة لاستئناف الحوار والمناقشة .

وأخرجت من جيبي نسخة من القرآن .. وبدأت أجيب عن الأسئلة التي أثيرت ــ من حوله ــ سؤالاً بعد سؤال ..

لقد كان النبي محمد يأمر كتاب الوحي بكتابة ما ينزل من القرآن وقت نزوله ومن هؤلاء زيد بن ثابت وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وغيرهم .

وقد أجمع المسلمون على أنه عليه الصلاة والسلام كان يوقف أصحابه عند الكتابة أو الحفظ على ترتيب آيات السور ويعلمهم مواضعها منها ، وكانوا يقرءون أمامه على وفق ما رتب وعلم ، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم عرض القرآن بعد تمامه عرضتين على جبريل عليه السلام ، ثم قرأه عليه أصحابه بعد ذلك على الترتيب الذي نعرفه ، فلم ينتقل عليه الصلاة والسلام إلى جوار ربه حتى كان القرآن كله مكتوباً يحفظه العدد الكثير من أصحابه ، لكن الصحائف والألواح التي كتب عليها لم تكن مجموعة بين دفتين في مصحف واحد .

وإنما جمع في خلافة أبي بكر الصديق ، وذلك أن عمر رضي الله عنه قال لأبي بكر رضي الله عنهما : إن أصحاب رسول الله يتهافتون على القتال ، تهافت الفراش على النار وأخشى ألا يشهدوا موطناً إلا

فعلوا ذلك حتى يقتلوا وهم حملة القرآن فيضيع وينسى فهلا جمعته ..؟

فنفر أبو بكر وقال : أأفعل ما لم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فتراجعا في ذلك ، ثم أرسل أبو بكر إلى زيد بن ثابت ـ وهو من كتاب الوحي من الحفظة المتقنين ـ وعرض عليه قول عمر ، وعمر ساكت ، فنفر زيد كما نفر أبو بكر وقال : نفعل ما لم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : وما عليكما لو فعلتما ؟ إنه والله خير . وما زال بهما حتى وافقاه .

فجمع أبو بكر الحفظة المشهود لهم بالإتقان ومنهم زيد بن ثابت ، وأخذوا يوالون الاجتماع ، وأحضروا كل ما كانوا قد كتبوه بإملاء النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذوا يقرأون ويقابلون على ما كتب حتى وصلوا إلى قوله تعالى : «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم»[1] . وهو آخر سورة التوبة فلم يجدوه مكتوباً ، مع أنه محفوظ ، فما زالوا يبحثون عنه حتى وجدوه مكتوباً عند أبي خزيمة بن أوس الأنصاري .

وكذلك آية : «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً»[2] .

فإنهم وجدوها عند خزيمة بن ثابت ، فكتبوا القرآن آياته وسوره

---

(١) آية ١٢٨ ، ١٢٩ من سورة التوبة .

(٢) آية ٢٣ من سورة الأحزاب .

على الترتيب والضبط اللذين تلقوهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضع عند أبي بكر .

فلما توفي كان عند عمر ، وبعده وضع عند أم المؤمنين حفصة بنته رضي الله عنها وقد انتهج زيد بن ثابت رضي الله عنه في تدوين القرآن طريقة دقيقة محكمة وضعها له أبو بكر وعمر ، فيها ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق به من تثبت بالغ ، وحذر دقيق وتحريات شاملة ، فلم يكتف زيد بما حفظه في قلبه ، ولا بما كتب بيده ، ولا بما سمع بأذنه ، بل جعل يتتبع ويستقصي آخذاً على نفسه أن يعتمد في جمع القرآن على مصدرين أصليين .

أحدهما ما كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثاني ما كان محفوظاً في صدور الرجال .

وبلغ من شدة حيطته وحذره أنه لم يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلم يعتمد زيد على الحفظ وحده بل جمع بين الحفظ والكتابة ، زيادة في التوثق ، ومبالغة في الاحتياط .

وعلى هذا الدستور الرشيد تم جمع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة وكان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر فى الإشراف ، ولعمر فى الاقتراح ، ولزيد فى التنفيذ ، وللصحابة فى المعاونة والإقرار .

فلما كان عهد عثمان رضي الله عنه ، أشار عليه بعض الصحابة أن يكتب للناس مصاحف ، ويرسلها إلى الآفاق التي انتشر فيها الإسلام ليجتمع المسلمون على مصحف واحد ، وحتى لا يقع في القرآن زيادة

ولا نقص ولا تبديل في آياته ، ولا تغيير في ترتيبه .

فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك .

فأرسلت بها حفصة إلى عثمان وهي الصحف التي جمع القرآن فيها على عهد أبي بكر رضي الله عنه ، وشرع عثمان في تنفيذ هذا القرار الحكيم حول أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين من الهجرة ، فعهد في نسخ المصاحف إلى أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ وهم :

زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وهؤلاء الثلاثة الأخيرون من قريش ، وأخذ الصحابة الأربعة في نسخ المصاحف ثم رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل «مصر»[1] . مصحفاً فأرسل إلى مكة والكوفة والبصرة ودمشق ، وأبقى بالمدينة مصحفاً . وأمر بما سواه من الصحف أو المصاحف أن يحرق وصار الناس يقرأون على مصاحفه ، ويكتبون منها مصاحفهم ، وتتابعوا على ذلك ، وقد اشتهر ما كتب بأمر عثمان بالمصحف الإمام أو مصحف عثمان ، وهو المعروف فى كلامنا الآن بالمصحف العثمانى نسبة إلى عثمان رضى الله عنه .

* * *

ونستطيع مما سبق أن نفرق بين مرات جمع القرآن في عهوده الثلاثة : عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وعهد أبي بكر رضي الله عنه ، وعهد عثمان عليه الرضوان .

---

(١) المراد بكلمة «مصر» هنا المدينة أو البلد .

فالجمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان عبارة عن كتابة الآيات وترتيبها ووضعها في مكانها الخاص من سورها ، ولكن مع بعثرة الكتابة وتفرقها . وكان الغرض من هذا الجمع زيادة التوثق للقرآن ، وإن كان التعويل أيامئذ على الحفظ والاستظهار .

أما الجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه فقد كان عبارة عن نقل القرآن وكتابته في صحف مرتبة الآيات مستوثقاً له بالتواتر والإجماع ، وكان الغرض منه تسجيل القرآن وتقييده بالكتابة مجموعاً مرتباً خشية ذهاب شيء منه بموت حملته وحفاظه .

وأما الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه فقد كان عبارة عن نقل ما في الصحف في مصحف واحد إمام واستنساخ مصاحف منه ترسل إلى الآفاق الإسلامية .

* * *

بعد هذه المقدمة الموجزة حول القرآن وطريقة جمعه وكتابته اسمحوا لي ثانية أن أستعير بعض العبارات التي كتبها سير وليم موير عن القرآن :

إن السير وليم موير . رجل مسيحي ، وهو في إيمانه المسيحي مؤمن شديد التعصب . وقد ألف كتاباً عن النبي «محمد» وانبهر بالقرآن الذي لم يجد بداً من الاعتراف بصدقه وقدسيته في كل موقف .

يقول السير وليم :

«إن نظم القرآن ومحتوياته تنطق فى قوة بدقة جمعه ، فقد ضمت الأجزاء المختلفة بعضها إلى بعض ببساطة تامة . لاتعسف فيها ولاتكلف ولا أثر لأحد فى هذا الجمع ، سوى التأكد والمراجعة لكل ما كتب ، وهو يشهد بإيمان الجامع وإخلاصه لما يجمع فهو لم يجرؤ على أكثر من تناول هذه الآيات

المقدسة ووضع بعضها إلى جانب بعض .. والنتيجة التى نستطيع الأطمئنان إلى ذكرها هى : أن جمع القرآن لم يكن دقيقاً فحسب . بل كان كما تدل الوقائع عليه كاملاً . وأن جامعيه لم يتعمدوا إغفال أى شيء من الوحى ...

ونستطيع كذلك أن نؤكد واستِناداً إلى أقوى الأدلة أن كل آية من القرآن دقيقة فى ضبطها كما تلاها محمد ...»

* * *

غير أن القرآن لم يسلم من التِشكيك والطعن . هناك كثيرون من الطاعنين والمستِشرقين في بلاد الغرب . يرون في القرآن نسخة محرفة من العهدين القديم والجديد .. وأقصى ما يقدمونه من أدلة يستشهدون بها على هذا الطعن .. هذا التِشابه في بعض الأحكام المذكورة في هذا القرآن ، والتي نص عليها الانجيل والتِوراة وقد غفل هؤلاء أو تناسوا أن الرسالة الإلهية التي بعث بها كل الأنبياء هي رسالة واحدة وأن الاتفاق فيما بينها هو الأصل وأن الخلاف أو الاختِلاف هو الشذوذ الذي يرفضه العقل ..

وحين يقول القرآن «إن الدين عند الله الإسلام» فإنما يعني بذلك أن الدين الذي اختِاره الله للبشرية منذ ظهر آدم أبو البشر وحتى هذا اليوم إنما هو «الإسلام» أي الانقياد والخضوع لأمر الله وشرائعه التي جاء بها كل الأنبياء إلى هذه الحياة .

فجميع خلق الله «مسلمون» .. لأنه لا يوجد كائن في هذا الكون غير خاضع لإرادة الله ...

لهذا .. فنحن مسلمون . وأنتم مسلمون .. مسلمون حسب هذا التِفسير الذي تعنو به وجوه الخلق لرب العالمين . !

فإذا كان في القرآن ما يوجد مثله في الإنجيل والتوراة فلأن المنبع واحد في الأصل .. ولأن التغيير والتحريف الذي وقع لم يذهب بكل ما جاء به الوحي ..

لهذا يضع القرآن المسيحيين واليهود في مكانة خاصة ، ويعاملهم دون غيرهم معاملة متميزة .

لكم مالنا .. وعليكم ماعلينا ..

مثلاً .. لقد أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج بمسيحية أو يهودية ولكنه يرفض مثل هذا الزواج بالنسبة للملحدة .. أو وثنية . ولماذا ؟

لأن الإسلام يعترف بأصل ديانة كل من اليهودية والمسيحية ويرى بينه وبين أصل هاتين الديانتين علاقة ورابطة . وكذلك أباح الإسلام طعام اليهود والنصارى ولم يبح طعام غيرهم ..

ومن هنا ... وقع الكثيرون في الخطأ . فقد ظنوا ـ جهلاً ـ أو عن سوء قصد ـ أن الإسلام نسخة مكررة من كتابكم المقدس وبما أن الإسلام جاء متأخراً .. فلا بد أن يكون قد اقتبس كل عقائده وأحكامه من الكتب السابقة .

ثم بنوا على هذا الظن ـ أو سوء النية والقصد ـ أن محمداً لا بد وأن يكون قد تعرف على بعض اليهود والنصارى ودرس عليهم . نجد هذا واضحاً في قصة «بحيرا» الراهب .. أو المعلم الخفي الذي تتلمذ على يديه محمد . أو مؤلف القرآن كما يزعم ذلك جاهل حاقد[1] .

---

(١) الأب لامانس

لقد تناول هذه «الأضحوكة» الساخرة كثير من المستشرقين ـ واليهود منهم بصفة خاصة ـ وفي مقدمة هؤلاء «ولهلهم رودلف» الذي وضع كتاباً أسماه «صلة القرآن باليهودية والمسيحية» .

والأساس الذي قام عليه هذا الكتاب هو ما اعتقده المؤلف من أن القرآن من عمل محمد وتفكيره ... ثم يذهب يبحث عن المصادر التي تساعده في هذا الادعاء فلم يظفر بشيء يوثق به .

يقول رودلف[1] : «إنا لمضطرون أن نفترض أن اليهودية والمسيحية قد عرفتا السبيل على نحو ما إلى مكة التي يعنينا أمرها كثيراً لأنها موطن محمد وان لم يكن ثم ما يثبت أنه كان بها يهود أو مسيحيون في عهد محمد ، ومن العسير أن نظن أنه كان بها كثير منهم وإلا لاحتفظت لنا السِّير بأنباء أكثر إسهاباً مما تناهى إلينا » ..

وبهذا يقرر بأسلوب علمي إقفار مكة من أتباع هاتين الديانتين ، لأن الأنباء التي وصلته ليس فيها ما يدل على أنه كان بها من يمكن أن يتعلم محمد منهم ما يكون قواعد هذا الدين ..

ولجأ إلى فكرة أخرى ، هي أن مكة كانت مستقراً للاتجار بين بلاد العرب وسوريا والعراق ، وأن لتجارها صلات تجارية في الجنوب والشمال ، فلا ريب في أنهم قد اطلعوا على معتقدات حرفائهم ، واذن فالتجار هم الذين قد نقلوا الفكر المسيحى واليهودي إلى محمد .

وهل كان هؤلاء التجار يهوداً أو مسيحيين ؟

هنا يشعر الكاتب بضعف مستنده ، فيتساءل عما إذا كان العرب

---

(١) نقلاً عن «صور استشراقية» للدكتور عبد الجليل شلبي .

الجاهليون قبل محمد قد عرفوا أفكاراً يهودية ومسيحية ؟

ويجيب بقوله : إننا لسوء الحظ نجدنا واقفين على أرض غير مستقرة . إذ ليس هناك أدلة تمدنا بذلك ..

وإذ حار دليل الرجل ولم يجد حجة يرجع إلى الفرض الذى افترضه ليتخذه دليل على نفسه .

إن القرآن به كثير من الديانتين إذ تحدث عن الربانيين والأحبار وأن البيضاوي (المفسر الإسلامي) ذكر أنه كان بالمدينة «مدارس لليهود» وهي مدرسة كان اليهود يبصرون فيها بأمور «دينهم» ولكن لا ينبغي أن نعزو إليهم علماً كثيراً ، فقد نقل محمد عنهم معلومات ضئيلة بها نقص ، ويتخللها ثغرات ، ولا يتحمل وحده تبعة ذلك ..

ثم يذكر المؤلف أن كتب السير أوردت بضعة أشخاص يعزى إليهم أنهم كانوا معلمي محمد ، ولكننا لا نعرف الكثير من أمرهم ، ومن المعروفين ورقة بن نوفل وبحيرا الراهب ..

والمؤلف غير صادق فيما ذكر من أن هناك معلمين مذكورين في كتب السير ، ولو كان صادقاً لسمى هذه الكتب التي أشار إليها ، وليس هناك كتاب إسلامي فيه شيء من هذا .

أما ورقة فكان من الحنفاء ، وقد مات بعد نبوة محمد بقليل جداً وهو حين أخبره محمد صلى الله عليه وسلم بأول وحي تلقاه ، أخبره أنه الناموس الذي أنزل الله على موسى ، وعلى عيسى ، مما يدل على أن ورقة لم يكن يؤمن بان عيسى بن الله ولافيه جانب إلهى ، وتمنى لو تطول حياته حتى يؤازر محمداً حين يعلن رسالته ويخرجه قومه من بلده ، ولكنه مات قبل أن يكلف محمد إنذار عشيرته الأقربين

أو بعبارة أخرى قبل أن يعلن دعوته ، والقرآن الذي أنزل عليه قبل موت ورقة لم يكن به أي تشريع .

على أن رودلف يشعر بالكثير من التردد والتخاذل فيما يورد من شأن محمد وورقة ، فيذكر أن ورقة لم يكن معروفاً بالدقة إن كان يهودياً أو نصرانياً قبل أن يتحنف[1] ثم يذكر أن بعضهم عزا إليه أنه نسخ أجزاء من الكتاب المقدس ، بل هناك من زعم أنه ترجم تلك الأجزاء .

ولم يبين رودلف هذا البعض ، ولا مصدر علمه به ، ولا مصدر علم هذا البعض بما نسب إلى ورقة ، ولا اللغات الأخرى التي كان يعرفها غير اللغة العربية .

والذي ورد عنه في المصادر العربية ، أنه كان طوف بالآفاق لطلب الدين وكره عبادة الأوثان وكل ما كان منه أنه يتوقع ظهور نبي وأنه بشر محمداً أنه هو النبي المنتظر وأنه سيعادى ويحارب من قومه وتمنى لو عاش حتى يظهر محمد دعوته ليؤازره ويقف بجانبه ، وفي هذا الحديث أنه لم يلبث أن مات .

وأما بحيرا ، فهو أحد الرهبان المسيحيين ، وكان لهؤلاء صوامعهم على تخوم الصحراء ومنذ عهد « يحيي » عليه السلام كان لهؤلاء أماكن تتوالى عليها جماعاتهم وتنتقل كل جماعة من مكان لآخر لتحل محلها جماعة أخرى ، وكان منهم أفراد يقيمون على انفراد ، وكان بحيرا

---

(١) الحنفاء أو الأحناف كانوا يعبدون الله على ملة إبراهيم . وقد تركوا الوثنية كما تركوا اليهودية والمسيحية ـ وفي حديث « كيف كان بدء الوحى » أنه كان نصرانياً . وفي السيرة الحلبية جـ ١ / ١٣٣ أنه كان يهودياً ثم تنصر ثم تحنف .

واحداً من هؤلاء ، وكان على الطريق المؤدي إلى سوريا قريباً من «بصرى» تمر به قوافل العرب ذاهبة وآيبة ، وكانوا يجالسونه أحياناً ، وفي رحلة أبي طالب التي صحبه فيها محمد وهو صبي مر به ورأى محمداً[1] وكانت سنه يومئذ تسعة أعوام ، وقيل كانت اثنتى عشرة سنة[2] .

وبحيرا لقب لهذا الراهب ، واسمه جرجيس ، وقيل سرجيس ، وكانت سكناه بالبلقاء من أرض الشام .

وقد استضاف تجار العرب في هذه المرة وقال لا ينبغي أن يتخلف منكم أحد وكان محمد قد تخلف لصغره عن شهود مثل هذا الحفل وبقي عند رحال القوم فلما أنبأوا بحيرا به طلب إحضاره ، وقد بشره بالنبوة وأشفق عليه من يهود أن تناله بسوء .

بهذا نرى أنها كانت رحلة عابرة ، ولقاء قصيراً بين عدد من القوم ، وكانت سن محمد لا تؤهله لحضور الحفلات مع الرجال ، وقد افتتح «مونتوجومري وات» كتابه . (محمد) بهذه القصة واتخذها موضوع سخرية ، ورأى أنها قصة مصنوعة .

وإذن فمن المقطوع به أن محمداً كان في سن لا تؤهله لتلقي دراسة . والفترة التي لاقى فيها بحيرا ، كانت قصيرة لا تعدو فترة تناول طعام ثم إن الرواية كلها ، موضع شك ، فكيف يجعل منها مدرسة لتعليم ديانة مستوفاة كاملة ؟ ثم أنظر كيف يجعلها بعض المستشرقين فرية لا

---

(١) أنظر ابن هشام جـ ١ ص ١١٦ ت محي الدين جـ ١ .

(٢) السيرة الحلبية جـ ١ / ١١٣ .

أساس لها ، ويجعلها آخر هي حجر الأساس في هذه الرسالة .

وينقل رودلف عن «شبرنجر» فرية لا وجود لها في غير رأسيهما وهي أن بحيرا ـ وهو رائد محمد والموحي إليه ـ انتقل معه إلى مكة وبقي بها «يعمل من وراء ستار متخذاً من محمد وسيلة صالحة لدعوة الكفار إلى نبذ عبادة الأوثان» .

وكل قارئ يلمح هذه الجرأة ويدرك الباعث عليها ، وهو تلمس الكاتب سبباً أي سبب ليهجم على الإسلام ويطعن محمداً صلى الله عليه وسلم فليس هناك مصدر .. ما .. يذكر أن بحيرا انتقل إلى مكة ، ثم كيف ينتقل زعيم ديني انتهت إليه رياسة الأخبار وصار مرجعهم وقائد ديانتهم ؟

هل أسلم وترك نصرانيته وتخلى عنها إلى دين لم يكن قد ظهر ولم يظهر بعد حتى مضى أكثر من ثلاثين عاماً ، والدين الإسلامي يقوم على التوحيد المطلق فكيف يقوم رئيس النصرانية بتلقين ما يهدم الديانة التي هو زعيم دعاتها ومعلميها ؟!

ويشعر رودلف بضعفه ، وهو لكثرة مفترياته يعاوده الشعور بالضعف كثيراً فيورد سؤالاً لا بد أن يبرز في الذهن ، وهو :

لماذا لم يتنبأ بحيرا نفسه واكتفى بأن يكون من وراء ستار ملقناً لمحمد ؟

ويجيب على هذا السؤال إجابة لا ينبغي أن نفلتها نحن المسلمين . يقول : إن محمداً كان له من حياته وأعماله ما يوحي بصدق رسالته ... !!!

وإذن فمحمد كان مشهوراً بالصدق والأمانة أكثر من رئيس الرهبان .

ومن الرجل الذى انتهى إليه علم النصرانية ، ومن كان مشهوراً بكل هذا الصدق ـ كل الصدق ـ كيف يكذب ويدعى نبوة ليست له ووحياً لم ينزل عليه .. أيدع الكذب على الناس ثم يكذب على الله ؟ وما حظ بحيرا من هذا العمل ؟ إن محمداً لم يحارب الوثنية فقط ، بل لقيد حارب المسيحية المزيفة وأنكر من أول ماجهر برسالته أن يكون لله ولد[1] وادعاء أن بحيرا رائده والموسوس له يؤذن بأن بحيرا لم يكن يؤمن بمسيحيته ، أو أنه قرأ فى دراساته عن هذا النبي فصدقه[2] .

ثم هل يتصور بشر .. أن طفلاً لا تزيد سنه عن تسع سنوات أو اثنتى عشرة سنة . يلتقى برجل فيتعلم منه لغته .. ثم يلقنه أصول عقيدته وديانته كل ذلك فى بضع ساعات ... ؟ هل يتصور ذلك عاقل من البشر؟

* * *

إن القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي سلم من كل تحريف .. والذي احتفظ بنصه الإلهي دون تغيير .

ومن إعجاز القرآن المدهش .. أن المسلمين يعرفون عدد آياته وكلماته بل وعدد حروفه أيضاً ...

إن عدد هذه الآيات كما هو الشائع والمعروف ستة آلاف آية . وعدد كلماته سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة ، أما حروفه فقد حصرها البعض فى ثلاثمائة ألف حرف وواحد وعشرين ألف حرف ومائة وثمانين حرفًا[3] ...

---

(١) أنظر : صوز استشراقية . د. عبد الجليل شلبي ٥٠ – ٦٣ .

(٢) أنظر ابن كثير ـ الجزء الأول . الصفحات الأولى ..

(٣) من محافظة أسيوط . جمهورية مصر .

كما أن طبع القرآن يخضع لقيود قاسية شديدة ..

مثلاً : عندنا في مصر وفي الأزهر الشريف إدارات متخصصة لمراجعة أى مصحف يطبع ولو ثبت أن حرفًا واحدًا أو نقطة واحدة سقطت أثناء الطبع أمر بإحراق كل النسخ على الفور..

ولتدركوا الفارق بين القرآن وغيره من الكتب قارنوا بين طبعات «الكتاب المقدس» .

إن الطبعة الكاثوليكية تختلف عن الطبعة البروتستانتية . والطبعة الأرثوذكسية تختلف عن طبعات المذاهب المسيحية الأخرى وفي كل طبعة جديدة تتم إضافات وتعديلات تختلف عن الطبعات السابقة .

أما القرآن . فإن النسخة التى بين أيدينا الآن هى نفس النسخة التى كتب بها القرآن منذ حوالى أربعة عشر قرناً .. إن الكتابة التى كتب بها المصحف منذ ذلك العهد .. هى نفس الكتابة التى يطبع بها المصحف حتى هذا اليوم .. وللمبالغة والتشدد فى الحفاظ على صورته التى كتب بها أول الأمر . فإن بعض كلماته التى تخالف القواعد الإملائية المعروفة فى أيامنا هذه . لا تزال كما هى لم تمتد إليها يد التغيير ، ولم يسمح لأحد بإحداث أى تعديل فى نقطة واحدة ، أو حرف واحد ..

أكثر من ذلك .. أن القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يمكن حفظه عن ظهر قلب .

لا يوجد في العالم الإسلامي كله مسلم واحد أو مسلمة واحدة لا تحفظ شيئاً من القرآن ..

والأعجب من ذلك كله .. أن كثيراً من أطفال المسلمين يحفظون هذا الكتاب بأكمله . وقد قرأت منذ أيام قليلة قصة طفل لم تزد سنه

عن السابعة قد استوعب حفظ القرآن بأكمله ..

طفل في هذه السن .. يحفظ سور هذا المصحف الذي تزيد صفحاته عن خمس مائة صفحة ، إن هذا فى حد ذاته معجزة .. ولو كان هذا الطفل فى أوربا لمنح جائزة « نوبل » المعروفة !.

* *

وقبل أن يسرقنا الوقت ويجرفنا بعيداً تيار المناقشة والبحث أريد أن أستأذنكم للرد على ما ورد في سؤال السيدتين «جاكلين . و«دوري» بخصوص التناقض المزعوم بين بعض آيات القرآن .

لقد ضربت السيدتان عدة أمثلة لهذا التناقض :

مثلاً : تقول إحدى الآيات « لا تبديل لكلمات الله »[1] ، بينما تقول آية أخرى « وإذا بدلنا آية مكان آية »[2] .

إن الآية الأولى تعترف باستحالة التبديل لآيات القرآن ... في حين تقرر الآية الثانية « إمكانية هذا التبديل للآيات » ..

وتقول السيدتان أيضاً : إن القرآن فقد منه الكثير بالنسيان بدليل الآية التي تقول : «واذكر ربك إذا نسيت[3] .. » .

ثم تقرران ثالثاً : بأن القرآن فقد منه الكثير بالنسخ بدليل الآية التي تقول : «ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها[4] » .

---

(١) سورة يونس ، ٦٤ .

(٢) سورة النحل ، ١٠١ .

(٣) سورة الكهف ، ٣٤ .

(٤) سورة البقرة ، ١٠٦ .

وفي النهاية تقول السيدتان : بأن القرآن الموجود حالياً في أيدي المسلمين مرفوع منه آيات . والدليل على ذلك بأنه وجد في مصحف «ابن عباس» ومصحف «ابن كعب» سورتا «الخلع» و«الحسد» .

وقد اتضح لى بعد قراءة ورقة هاتين الأختين الفضليين أنهما واقعتان تحت تأثير كتابات المستشرقين . ووقعتا في حبائل التشكيك التي تخصص فيها بعض المبشرين .. والرد على هذه الشبهات أو الافتراءات في غاية البساطة .. وفي غاية الوضوح .. ولا يحتاج من أي مسلم قرأ القرآن في لغته الأصلية أكثر من تحريك القلم . والشروع في الإجابة على الفور ..

وهذه هي الإجابة .. وسنرد على هذه الشبهات بالترتيب الذي ورد في هذه الورقة ..

* * *

أ ـ إن هؤلاء المستشرقين فصلوا قوله تعالى (لاتبديل لكلمات الله) عن سياقه هروباً من الحق إلى الباطل ، فالله تعالى يقول فى سورة يونس (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) .

فأنت ترى أن جملة (لا تبديل لكلمات الله) جاءت عقب وعد الله أولياءه وأحبابه المؤمنين المتقين بأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لتؤكد هذا الوعد وتلك البشرى ، ببيان أن ذلك وعد صادر عن الله بكلماته ، فلا سبيل إلى تبديله أو الخلف فيه ...

وبشراهم في الحياة الدنيا والرؤيا الصالحة في النوم ، وتبشير الملائكة إياهم عند قبض أرواحهم : أخرجى أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء .

وأما بشراهم في الآخرة ، فكما قال تعالى (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) سورة الأنبياء ١٠٣ .

وقوله سبحانه (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) . سورة الحديد : ١٢ .

* أما آية النحل (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) . فمعناها وإذا بدلنا شريعة متقدمة بشريعة مستأنفة جديدة ، ناسخة للشريعة التى سبقتها لتغيير الزمان والأمم ، وحدوث التغيير والتبديل من أهل الهوى فى الكتب السماوية السابقة ـ إذ حدث تبديل شريعة بأخرى لذلك قالوا للرسول : ما أنت إلا مفتر ، لأنك خالفت الشريعة التى قبلك :

وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بقوله (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) .

أي قل أيها الرسول لهؤلاء الحاقدين : لست مفترياً على الله بالقرآن ، بل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت المؤمنين بما فيه من الحجج والآيات وهو هدى وبشرى للمسلمين لا يعرف قيمته

غيرهم ، فمن ذاق عرف ، ومن أسلم عاش في النور ومن كفر عاش في ظلام .

وإطلاق الآية على الشريعة ، لأن الآية لغة بمعنى العلامة ، والشريعة علامة على أنها من عند الله إذا انتفى عنها مازيفه الوضاعون ، وتفسير الآية هنا بالشريعة هو ما رآه بعض المفسرين .

ومن المفسرين من قال إن المعنى هنا : وإذا نسخنا تشريع آية بتشريع آية أخرى تدرجاً مع البشر من السهل إلى ما فيه بعض المشقة زعموا أنه مفتر وسيأتي الكلام على هذا الرأي في قوله تعالى «ما ننسخ من آية» ..

* * *

(ب) الشبهة الثانية «زعمهم أن القرآن فقد منه كثير بالنسيان ، بدليل الآية التي تقول «واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً» .

هذه الشبهة مبعثها الجهل والتحامل ، فهذه الآية ليست وحدها بل هي مرتبطة بما قبلها ومكملة له ، وليست فيما زعموه من أن الرسول صلى الله عليه وسلم نسي شيئاً من القرآن ، فحاشاه أن ينساه ، فاقرأ معي هذه الآية مع التي قبلها مباشرة (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً ، الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الكهف) .

فأنت ترى أن الآيتين أنزلهما الله تعالى تعليماً وإرشاداً لكل مسلم أراد فعل شيء في المستقبل أن يقول مثلاً : إني فاعل ذلك غداً إن شاء

الله تعالى ، فإن نسي ربط فعله بمشيئته سبحانه ، ثم تذكر فليقل إن شاء الله تعالى فسأفعل هذا وعسى ربي أن يهديني لأقرب منه رشداً ، ليكون ذلك تكفيراً لنسيانه مشيئة الله في عبارته الأولى ..

والحكمة في تعليق الفعل على مشيئة الله أن الإنسان عرضة لنسيان ما وعد به غيره ، أو نسيان زمن فعله أو حدوث ما يمنعه منه في الوقت الذي عينه . فان تخلف الفعل بسبب شيء من ذلك ، فلا يكون عند الله وعند من وعده كاذباً ، لأن التخلف حدث لأمر خارج عن إراداته ، وهو أنه تعالى لم يشأ تحقيقه في موعده وكثيراً مايحدث مثل ذلك .

* *

(جـ) الشبهة الثالثة ـ ما زعموه من أن القرآن فقد منه كثير (بالنسخ) بدليل الآية (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) .

أما قوله تعالى (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) .

فليس الأمر في معناها كما زعم الزاعمون ، بل معناها : ما ننسخ من شريعة سابقة كالتوراة والإنجيل ، أو نجعلها منسية غير معروفة النصوص كشريعة إبراهيم عليه السلام ، نأت بشريعة أخرى مكان المنسوخة أو المنسية ، وهذه الشريعة الناسخة خير من الشريعة المنسوخة أو المنسة في بعض التشريعات الفرعية المناسبة لحال الأمة التي شرعت لها ، أو مماثلة لها في الأصول التي لا تتبدل بتبدل المرسلين ولا تتغير بتغير الزمان ، كتوحيد الله ووجوب العدل بين طبقات الناس ، وبر الوالدين ـ إلى غير ذلك مما لا يصح أن تخلو منه شريعة من الشرائع السماوية .

والذي دعا إلى تفسير الآية هنا بالشريعة السياق الذي سيقت فيه ، فقد تضمنت الآيات التي قبلها أن الله أنزل على محمد آيات بينات ، وما يكفر بها إلا الفاسقون من أهل الكتاب الذين وصفوا بأنهم كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ، وأنهم لما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ـ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ـ نبذ فريق منهم كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون أنه حق ، مع أن كتبهم بشرت به ، وأنهم بدلاً من أن يتبعوا القرآن اتبعوا السحر ومارسوه ، وهو حرام وقد يؤدى إلى الكفر بمن يمارسه (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) .

ثم بين أن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، لا يودون أن ينزل عليهم من خير من ربهم وأن الله يختص برحمته من يشاء ، فلا داعي لحقدهم على نبوة واحدة من بني إسماعيل فإن الله ذو الفضل العظيم .

وبين لهم أن نسخ القرآن لكتبهم لا يحدث منه إلا المنفعة العظمى ، فإنه مشتمل على ما هو خير من الشرائع المنسوخة في الأحكام الفرعية المناسبة للأمة المكلفة به ، أو ما هو مماثل لها إذا كان من العقائد وأصول الأحكام التي لا بد منها في جميع الشرائع الإلهية .

ومن العلماء من ذهب إلى أن المراد من النسخ في الآية نسخ بعض الأحكام في الإسلام بأحكام أخرى لمصلحة الأمة الإسلامية على سبيل التدرج بهم مثل نسخ التخيير بين الصوم في رمضان وبين الفطر فيه مع الفدية بقوله تعالى (وعلى الذين يطيقونه فدية) بوجوب صومه على

القادرين المطيقين بمشقة وذلك بقوله تعالى (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) .

ومثل النهي عن شرب الخمر قبل الصلاة بقوله تعالى (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) وإباحتها فيما عدا ذلك ، فقد نسخ ذلك بتحريمه على الإطلاق بقوله سبحانه (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) .

وكل ذلك على سبيل التدرج في الأحكام التي تشق عليهم ، وكل من الناسخ والمنسوخ موجود في القرآن لبيان أن التشريع في الإسلام سلك سبيل التدرج في الأحكام الصعبة ، أخذاً بسياسة الحكمة في التشريع للأمة ، وسواء قلنا بالرأي الأول أم الثاني فالقرآن لم يضع منه حرف ولا كلمة ولا آية .

ويقول أصحاب هذا الرأى وذاك : ان مثل هذا موجود فى جميع الأديان فأنت إذا قرأت التوراة التى بأيدى اليهود والمسيحيين وجدت فيها أن نوحاً حين خرج من السفينة أحل الله له أموراً بالنص التالى :

(إني جعلت كل دابة مأكلاً لك ولذريتك ، وأطلقت لكم كنبات العشب ما عدا الدم فلا تأكلوه) ثم حرم على موسى وعلى بني إسرائيل كثيراً من الحيوان .

وكان آدم يزوج الأخ من الأخت ، وقد حرم الله ذلك على موسى وغيره وكان إبراهيم الخليل قد أمر بذبح ابنه ، ثم قال له لا تذبحه ، وكان موسى قد أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل ، ثم أمره برفع السيف عنهم إلى غير ذلك من صور النسخ ، فلماذا لا

يحس هؤلاء بالخشبة في عيونهم ، ويحاولون أن يجدوا قشة رفيعة في عيون سواهم وهي خلية منها .

ولا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قصد بها مصالح شعوبهم الدينية والدنيوية ، وإنما تتبدل التكاليف حسب تبدل المصالح ، كالطبيب يراعي في علاجه أحوال المريض ، فينقله من دواء إلى إلى دواء حسب تطور حالته .

* * *

د ـ (الشبهة الرابعة) : إن القرآن الموجود حالياً في أيدي المسلمين مرفوع منه آيات ، والدليل على ذلك أنه وجد في مصحف ابن عباس ومصحف ابن كعب سورتا الخلع والحسد ، كذا قاله المرجفون .

هذه الشبهة لا أساس لها من الصحة ، ويكفي للرد عليها أن الخلع [1] موجود في القرآن الكريم في قوله تعالى : «فان خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به» .

وأما الحسد فموجود فى سورة « الفلق » « قل أعوذ برب الفلق من شر ماخلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات فى العقد ومن شر حاسد إذا حسد » .

فهل بعد هذه الشبهات الفاسدة من إفلاس . إنه لا قرآن إلا ما أجمع عليه المسلمون منذ الوحي المحمدي حتى الآن ، وهو الذي يقرأونه اليوم وقبل اليوم إلى عهد النبوة وسيظل كما هو ، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً إلى يوم القيامة وفاء من الله سبحانه بوعده .

---

(١) الخلع هو طلب الزوجة الطلاق من زوجها على أن ترد إليه ما أخذت منه .

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

ولأنه آية الله وحجته على خلقه ، ومعجزته الباقية ما بقي الزمان ، الشاهدة بصحة دين الإسلام ، في الوقت الذي أصبحت فيه معجزات الأنبياء في ذمه الزمان .

* * *

وبعد ...

فالساعة تقترب الآن من الثانية عشرة .. أشعر بامتلاء العقول من فيض الإيمان والحكمة .. وقد آن الأوان لأترك مكاني عائداً إلى المسجد . هناك في شارع كومونولث .

تجدونني في انتظاركم دائماً ..

لا . بل ستجدون قلوباً أخرى نيرة ملأها الصفاء بالحب .. الحب لكل الناس .. مسلمين وغير مسلمين ...

هنا حيث تتلاقى الأديان تحت مظلة الله المقدسة التي تشمل بكرمها العصاة والأتقياء وتهتف الحقيقة بآياتها المبينة بين الأرض والسماء .. وكأني بجدكم العظيم «كارليل» يدخل علينا الآن متأبطاً كتابه الخالد .. « الأبطال » فدعونا نستمع إليه قليلاً وهو يتكلم عن محمد نبي الإسلام ..

* * *

«من العار أن يصغي أي إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين . إن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً لم يكن على حق» .

لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة ، فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي ، ظلت سراجاً منيراً أربعة عشر قرناً من

الزمان ، لملايين كثيرة من الناس ، فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التي عاشت عليها هذه الملايين ، وماتت ، أكذوبة كاذبة ، أو خديعة مخادع ؟ ولو أن الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير لأصبحت الحياة سخفاً وعبثاً وكان الأجدر بها ألا توجد .

هل رأيتم رجلاً كاذباً ، يستطيع أن يخلق ديناً ، ويتعهده بالنشر بهذه الصورة ؟

إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتاً من الطوب ، ولجهله بخصائص مواد البناء ، وإذا بناه فما ذلك الذي يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد فما بالك بالذي يبني بيتاً دعائمه هذه القرون العديدة وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس ؟

وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمداً رجلاً كاذباً متصنعاً ، متذرعاً بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع .. وما الرسالة التي أداها إلا الصدق والحق .

وما كلمته إلا صوت حق صادق من العالم المجهول .. وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله .. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

إني أحب محمداً ، لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان ابن الصحراء مستقل الرأي ، لا يعتمد إلا على نفسه ، ولا يدعي ما ليس فيه ، ولم يكن متكبراً ولا ذليلاً فهو قائم في ثوبه المرقع ، كما أوجده الله يخاطب بقوله الحر المبين أكاسرة العجم وقياصرة الروم ، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة . والحياة الآخرة .

وما كان محمد بعاشق قط ، ولا شاب قوله شائبة لعب ولهو ، فكانت المسائل عنده مسألة فناء وبقاء . وأما التلاعب بالأقوال ، والعبث بالحقائق فما كان من عادته قط .

ويزعم المتعصبون أن محمداً لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والحياة والسلطان .. كلا واسم الله .. ..

لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس ، المملوء رحمة وبراً وحناناً وخيراً ونوراً وحكمة ، أفكار غير الطمع الدنيوي ، وأهداف سامية غير طلب الجاه والسلطان .

ويزعم الكاذبون أن الطمع وحب الدنيا هو الذي أقام محمداً وأثاره .

حمق وسخافة وهوس : ان رأينا رأيهم . .

لم يكن كغيره ، يرضى بالأوضاع الكاذبة ، ويسير تبعا للاعتبارات الباطلة ولم يقبل أن يتشح بالأكاذيب والأباطيل .

لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة ، وبحقائق الكون والكائنات ، لقد كان سر الوجود يسطع أمام عينه بأهواله ومحاسنه ومخاوفه ..

لهذا جاء صوت هذا الرجل منبعثاً من قلب الطبيعة ذاتها ..

ولهذا وجدنا الآذان إليه مصغية ، والقلوب لما يقول واعية .

لقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه ، وسائر أموره وأحواله فكان طعامه ، عادة الخبز والماء ، وكثيراً ما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار .

فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟

فحبذا محمد من رجل متقشف ، خشن الملبس والمأكل ، مجتهداً

في الله دائباً في نشر دين الله ، غير طامع إلى ما يطمع إليه غيره من رتبة أو دولة أو سلطان .

ولو كان غير ذلك لما استطاع أن يلاقى من العرب الغلاظ احتراماً وإجلالاً وإكباراً ولما استطاع أن يقودهم ويعاشرهم معظم وقته ، ثلاثاً وعشرين حجة وهم ملتفون حوله يقاتلون بين يديه ويجاهدون معه .

لقد كان في قلوب العرب جفاء وغلظة ، وكان من الصعب قيادتهم وتوجيههم لهذا كان من يقدر على ترويضهم وتذليلهم بطلاً ، وأيم الله ..

ولولا ما وجدوا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا لإرادته ، ولما انقادوا لمشيئته .

وفي ظني أنه لو وضع قيصر بتاجه وصولجانه وسط هؤلاء القوم بدل هذا النبي ، لما استطاع قيصر أن يجبرهم على طاعته ، كما استطاع هذا النبي فى ثوبه المرقع » .

هكذا تكون العظمة ...

وهكذا تكون البطولة ...

وهكذا تكون العبقرية ...

المحتويات

وما قصة بحيرا الراهب .. ؟ لقد
قيل إنه أستاذ محمد . وإنه المعلم
الروحى لنبى العرب .. ؟
نموذج من الفكر الاستشراقى الملفق ..
التناقض المزعوم بين الذين يعلمون والذين
لا يعلمون ...
كارليل يتحدث عن النبى ...

رقم الايداع ٤٩٥٣ / ٨٥ الترقيم الدولى ٥ ـ ٠٣٧ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٧٧٤٨١٤ ـ ٧٧٤٥٧٨ ـ برقيا : شروق ـ تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣ ـ برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE